

الافتتاحية

عواقب التبذير

هل المسلمون فقراء؟ وهل صحيح أن الله حرمهم حيث وسَّع على غيرهم؟ ، سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً.

إن فضل الله على المسلمين لا حدود له ، ولا يحيط به وصف ، وإن ما حباهم به من الخير تتحلب له نفوس غيرهم ، وتتكالب على الظفر ببعضه القوي من شرق وغرب.

إذن ، فما سر هذا الضنك الذي يعيش به المسلمون ، وماذا وراء هذا الهوان الذي يُلْفهم حينما تُطرح قضاياهم على موائد المساومات؟!

إن هذا السؤال يقضّ مضجع كل من يحمل قلباً من المسلمين ، ويؤرقه ليل نهار بحثاً عن الجواب. وعلى كثرة الأجوبة وتشعبها ، ومن خلال تجميع الأسباب للخروج بنتيجة يمكن إبرازها ؛ فإن هناك ظاهرة تصب في أسباب الضعف والتراجع ، ألا وهي ظاهرة التبذير والإسراف.

وحينما نقول: ظاهرة ؛ فإننا نعني أن الأمر خرج عن أن يكون مسلكاً فردياً لقلّة من الأفراد لا تأثير لهم في المجتمع الكبير. ولو كان الأمر كذلك لما استحق أن يُنوّه به كسبب رئيسي من أسباب التخلف والانحطاط.

ونريد أن نتقدم خطوة أخرى فنقول: إن من شأن البعيدين عن هدي الإسلام والقرآن إذا اغتتوا أو ملكوا شيئاً من أسباب القوة أن يدفعهم ذلك إلى الإسراف والبطر والتعالي على خلق الله ، وعيش اللحظة الراهنة دون تفكير بالعواقب ، ولا وضع النهايات في الاعتبار.

ولكن حديثنا لن يتجه إلى هؤلاء ، وإنما يعني أن نتوجه إلى من يفترض فيهم بُعد النظر ، وعدم الاغترار باللحظة العابرة ، وهم الذين يهتمهم أمر المسلمين ، ويعيشون من أجل الفكرة الإسلامية ، لها يعملون ، وفي سبيلها يضحون.

يحسن بالمسلم أن يفرق بين الكرم - الذي هو خلق أصيل من الأخلاق الإسلامية - وبين التهور في التبذير.

فكثير من فضلاء المسلمين يدفعهم الخوف من وصفهم بالبخل ، وحرصهم على أن يوصفوا بالكرم إلى أن يتكفوا في المأكل والمشرب والملبس والمركب ، ويقلدوا من يطفون على صفحة المجتمع من محدثي النعمة ، وعندما تتحول القيادة الفكرية في مجتمع ما إلى مثل هؤلاء الذين يضربون أسوأ الأمثلة للآخرين ، في غيبة المبادئ التي تعمل على تماسك المجتمع في وجه الرياح التي تهب عليه من كل جانب ؛ فأى خير يبقى في الحياة ، وأي أمل في تحسن الأحوال؟!

إن المجتمع المسلم بحاجة إلى مثل أعلى في هذا المجال غير من تملأ أخبارهم أعمدة الصحف والمجلات ، مثل أعلى في الحكمة والتعقل في مجال الإنفاق ، والبعد عن تضييع الأموال في ما لا يُجدي.

وعلى عقلاء المسلمين الانتباه إلى حسن التدبير والنظر إلى مستقبل الدعوة الإسلامية ، فهذه الدعوة إذا تحسن حالها بما يبذله المحسنون في سبيلها عن طريق التبرع والإحسان ؛ فإن حالها سيكون

أحسن إذا قامت مشاريع ومؤسسات صلبة قادرة على الوقوف بذاتها دون الاعتماد المتواصل على الصدقات والهبات - وهذا ليس تعريضاً أو تشهيراً بالصدقات - وأول خطوة في سبيل ذلك أن ينهض بهذا الأمر أناس ينفرون من المظاهر ، ويتحرون البعد عن التنطع الذي يحق البركة . فالبركة في المفهوم الإسلامي ليست أمراً خيالياً يصعب تعليقه ، وإنما هي ثمرة الجهد الذي يصدر من أناس أخلصوا نيتهم لله ، وتبرؤوا من كل حول وطول إلا من الاعتماد عليه في كل شأن من شؤونهم ، وبذلوا وسعهم ، وحين يعلم الله - سبحانه - صدق تجردهم ، وبذلهم جهد طاقتهم يجعل الله لقليلهم ثمرة ، ويبارك جهدهم ، كما قال تعالى: ((لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)) [الطلاق: ٧].

فما بالك بالكثير المتمر؟ ، في حين يحق - سبحانه - جهود من يحادونه ويصدون عن سبيله ولو كان القناطير المقنطرة التي تنفق من أجل ذلك ؛ مصداقاً لقوله - عز وجل -: ((إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ)) [الأنفال: ٣٦].

إننا لا نأتي بجديد إذا دعونا المسلمين إلى الاقتصاد في النفقة والبعد عن تبديد نعمة الله فيما لا يعود بالفائدة ؛ فقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "إن الله يرضى لكم ثلاثاً ، ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال" [رواه مسلم ١٣٠: ٥].

وما لم يعلنها المسلمون - وأخص العرب منهم الذين أكرمهم الله بهذا الدين ، وامتنن عليهم بأن جعلهم في سرية العالم ، وأتمنهم على تبليغ هذه الرسالة للعالمين - أقول: ما لم يعلنها المسلمون حرباً على التبذير في كل مجال فإن اليوم الذي ستغزوهم فيه منظمات الإغاثة قريب ، والساعة التي ستجعلهم في عداد الدول التي تتناوشها هذه المنظمات من كل جانب ، والبنك الدولي من جانب آخر تلوح في الأفق ، ومن يدري عندها ؟ فقد يحقق هؤلاء فتنة المسلمين عن دينهم ، وهو ما عجزوا عن تحقيقه قبلاً بقوة السلاح ، وأماننا أمثلة حية من بنغلاديش وموزمبيق والحبشة وغيرها .

مجددون معاصرون

رواد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

الشيخ عبد الحميد بن باديس

في مدينة قسنطينة عاصمة الشرق الجزائري ، ومن أسرة عريقة في المجد والثراء والعلم وُلد الشيخ عبد الحميد بن باديس عام ١٣٠٨ هـ / ١٨٨٩ م ، فهو ينتسب إلى الأسرة الباديسية المشهورة في التاريخ . فالمعز بن باديس (٤٠٦-٤٥٣) هو الذي أبعده النفوذ العبيدي (الفاطمي) عن المغرب ، وعمل على تنظيم انفصال المغرب الإسلامي سياسياً ومذهبياً عن الحكم العبيدي ، وحارب الشيعة الرافضة في إفريقية ، وحمل الناس على اعتناق المذهب السني ، وكان الشيخ عبد الحميد يفتخر بأعمال هذا الجد ، أما والده محمد المصطفى فهو من كبار الموظفين والوجهاء في قسنطينة ،

و عضو المجلس الجزائري الأعلى ، وقد عرف دائماً بدفاعه عن مطالب السكان المسلمين في قسنطينة ، يقول عنه ابنه:

"إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها ، ومشرباً أردّه ، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً.." (١).

فهذا الوالد لم يحاول ثني الشيخ عن أي عمل يقوم به في الدعوة كعادة الآباء الذين في مثل وظيفته ووجهته ، كما أنه لم يُلحقه بالمدارس الفرنسية كغيره من أبناء العائلات الكبيرة. نشأ ابن باديس في بيئة علمية، فقد حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة سنة، ثم تتلمذ على الشيخ (أحمد أبو حمدان الونيسي)، فكان من أوائل الشيوخ الذين لهم أثر طيب في اتجاهه الديني ، ولا ينسى ابن باديس أبداً وصية هذا الشيخ له: "اقرأ العلم للعلم لا للوظيفة"، بل أخذ عليه عهداً ألا يقرب الوظائف الحكومية عند فرنسا.

في جامع الزيتونة:

في عام ١٩٠٨ قرر ابن باديس - وهو الشاب المتعطش للعلم - أن يبدأ رحلته العلمية الأولى إلى تونس ، وفي رحاب جامع الزيتونة الذي كان مقراً كبيراً للعلم والعلماء يُشبه في ذلك الأزهر في مصر. وفي الزيتونة تفتحت آفاقه ، وعبّ من العلم عباً ، والتقى بالعلماء الذين كان لهم تأثير كبير في شخصيته وتوجهاته، مثل الشيخ محمد النخلي الذي غرس في عقل ابن باديس غرسة الإصلاح وعدم تقليد الشيوخ، وأبان له عن المنهج الصحيح في فهم القرآن. كما أثار فيه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور حب العربية وتذوق جمالها ، ويرجع الفضل للشيخ البشير صفر في الاهتمام بالتاريخ ومشكلات المسلمين المعاصرة وكيفية التخلص من الاستعمار الغربي وأثاره.

تخرج الشيخ من الزيتونة عام ١٩١٢ وبقي عاماً آخر للتدريس حسب ما تقتضيه تقاليد هذه الجامعة ، وعندما رجع إلى الجزائر شرع على الفور بإلقاء دروس في الجامع الكبير في قسنطينة، ولكن خصوم الإصلاح تحركوا لمنعهم، فقرر القيام برحلة ثانية لزيارة أقطار المشرق العربي.

في المدينة النبوية:

بعد أداء فريضة الحج مكث الشيخ ابن باديس في المدينة المنورة ثلاثة أشهر ، ألقى خلالها دروساً في المسجد النبوي ، والتقى بشيخه السابق (أبو حمدان الونيسي) وتعرف على رفيق دربه ونضاله - فيما بعد - الشيخ البشير الإبراهيمي. وكان هذا التعارف من أنعم اللقاءات وأبركها ، فقد تحدثا طويلاً عن طرق الإصلاح في الجزائر واتفقا على خطة واضحة في ذلك. وفي المدينة اقترح عليه شيخه (الونيسي) الإقامة والهجرة الدائمة ، ولكن الشيخ (حسين أحمد الهندي) المقيم في المدينة أشار عليه بالرجوع للجزائر لحاجتها إليه ، فكانت خير نصيحة. زار ابن باديس بعد مغادرته الحجاز بلاد الشام ومصر واجتمع برجال العلم والأدب وأعلام الدعوة السلفية ، وزار الأزهر واتصل بالشيخ بخيت المطيعي حاملاً له رسالة من الشيخ (الونيسي).

العودة إلى الجزائر:

وصل ابن باديس إلى الجزائر عام ١٩١٣ واستقر في مدينة قسنطينة ، وشرع في العمل التربوي الذي صمم عليه ، وهو إنقاذ أطفال المسلمين وشبانهم من هوة الجهل والتخلف ، فبدأ بدروس للصغار ثم للكبار ، والمسجد هو المركز الرئيسي لنشاطه ، ثم تبلورت لديه فكرة تأسيس جمعية العلماء

المسلمين والتي تحدثنا عنها في العدد السابق ، ولكن نشاط الشيخ كان متعدداً ، واهتماماته كثيرة لا يكتفي أو يقنع بوجهة واحدة ، فاتجه إلى الصحافة ، وأصدر جريدة (المنتقد) عام ١٩٢٥ وأغلقت بعد العدد الثامن عشر ؛ فأصدر جريدة (الشهاب) الأسبوعية ، التي يث فيها آراءه في الإصلاح ، وخاصة إصلاح عقائد الناس من الخرافات والدجل وأساليب الطرقيين ، واستمرت كجريدة حتى عام ١٩٢٩ ثم تحولت إلى مجلة شهرية علمية ، وكان شعارها: "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها" ، وتوقفت المجلة في شهر شعبان ١٣٢٨ هـ / أيلول عام ١٩٣٩م بسبب اندلاع الحرب العالمية الثانية ، وحتى لا يكتب فيها أي شيء تريده الإدارة الفرنسية تأييداً لها ، وفي سنة ١٩٣٦ دعا إلى مؤتمر إسلامي يضم التنظيمات السياسية كافة من أجل دراسة قضية الجزائر ، وقد وجه دعوته من خلال جريدة (لاديفانس) التي تصدر بالفرنسية ، واستجابت أكثر التنظيمات السياسية لدعوته وكذلك بعض الشخصيات المستقلة ، وأسفر المؤتمر عن المطالبة ببعض الحقوق للجزائر ، وتشكيل وفد سافر إلى فرنسا لعرض هذه المطالب وكان من ضمن هذا الوفد ابن باديس والإبراهيمي والطيب العقبي ممثلين لجمعية العلماء ، ولكن فرنسا لم تستجب لأي مطلب وفشلت مهمة الوفد . إن هذه الدعوة للمؤتمر وحضوره ، وذهاب وفد العلماء إلى فرنسا كانت اجتهاداً من ابن باديس - رحمه الله - يرى فيه مصلحة الجزائر ولكن يجب الاعتراف هنا بأن هذه الخطوة كانت خطأ وبشتى المقاييس التي تقوّمه سابقاً ولاحقاً ، وتد أصاب الأستاذ مالك بن نبي عندما اعتبر هذا المؤتمر نقطة ضعف في شخصية العلماء حين لجأوا إلى الأساليب غير المجدية ؛ لأنها أساليب الضعفاء للحصول على فتات الموائد .

واستغل السياسيون هذا المؤتمر ليصلوا إلى أهدافهم الهزيلة ، وأما غير مالك بن نبي ممن يهاجم جمعية العلماء - فهم في الحقيقة لا يتقون الله في خصوماتهم ، ويتكلمون من منطلق الحقد والخصومات السياسية الشخصية .

ومثل هذا الخطأ من ابن باديس لا ينبغي أن يحجب عنا العمل العظيم الذي قام به وهو قيادة جمعية العلماء منذ تأسيسها عام ١٩٣١م وحتى وافاه الأجل عام ١٩٤٠م ، وفقدت الجزائر بفقده عالماً مجدداً ومصلاً مربياً ، وضع كل جهده وإمكاناته لرفع شأن المسلمين في الجزائر ، ولم يشغله ذلك عن أوضاع المسلمين في كل مكان .

العوامل المؤثرة في شخصية ابن باديس:

لا شك أن البيئة الأولى لها أثر كبير في تكوين شخصية الإنسان ، وفي بلد كالجزائر عندما يفتح ذهن المسلم على معاناته من فرنسا ، وعن معاناته من الجهل والاستسلام للبدع - فسيكون هذا من أقوى البواعث لأصحاب الهمم وذوي الإحساس المرهف على القلق الذي لا يهدأ حتى يحقق لدينه ولأُمته ما يعتبره واجباً عليه ، وكان ابن باديس من هذا النوع ، وإن بروز شخصية كابن باديس من بيئة ثرية ذات وجهة لهو دليل على إحساسه الكبير تجاه الظلم والظالمين ، وكان بإمكانه أن يكون موظفاً كبيراً ويعيش هادئاً مرتاح البال ولكنه اختار طريق المصلحين .

ونأتى البيئة العلمية التي صقلت شخصيته وهذبت مناحيه والفضل الأكبر يعود إلى الفترة الزيتونية ورحلته الثانية إلى الحجاز والشام حيث تعرف على المفكرين والعلماء الذين تأثروا بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما دعا إليه من نقاء العقيدة وصفائها . وكان لمجلة (المنار) التي يصدرها الشيخ رشيد رضا أثر قوي في النظر لمشكلات المسلمين المعاصرة والحلول المطروحة .

ومما شجع ابن باديس وأمضى عزيمته وجود هذه العصابة المؤمنة حوله ، وقد وصفهم هو بالأسود الكبار - من العلماء والدعاة أمثال الإبراهيمي والتبسي والعقبي والميلي... وقد عملوا معه في انسجام قل أن يوجد مثله في الهيئات الأخرى.

آثار ابن باديس:

شخصية ابن باديس شخصية غنية ثرية ومن الصعوبة في حيز ضيق من الكتابة الإمام بكل أبعادها وآثارها؛ فهو مجدد ومصلح يدعو إلى نهضة المسلمين ويعلم كيف تكون النهضة. يقول: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة ، وإذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر وتدبر وتتشاور وتتأثر ، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة ، متساندة في العمل عن فكر وعزيمة".

وهو عالم مفسر ، فسر القرآن كله خلال خمس وعشرين سنة في دروسه اليومية كما شرح موطأ مالك خلال هذه الفترة ، وهو سياسي يكتب في المجالات والجرائد التي أصدرها عن واقع المسلمين وخاصة في الجزائر ويهاجم فرنسا وأساليبها الاستعمارية ويشرح أصول السياسة الإسلامية ، وقبل كل هذا هو المربي الذي أخذ على عاتقه تربية الأجيال في المدارس والمساجد ، فأنشأ المدارس واهتم بها ، بل كانت من أهم أعماله ، وهو الذي يتولى تسيير شؤون جمعية العلماء ، ويسهر على إدارة مجلة الشهاب ويتفقد القاعدة الشعبية باتصالاته المستمرة. إن آثار ابن باديس آثار عملية قبل أن تكون نظرية في كتاب أو مؤلف ، والأجيال التي رباها كانت وقود معركة تحرير الجزائر ، وقليل من المصلحين في العصر الحديث من أتاحت لهم فرص التطبيق العملي لمبادئهم كما أتاحت لابن باديس ؛ فرشيد رضا كان يحلم بمدرسة للدعاة ، ولكن حلمه لم يتحقق ، ونظرية ابن باديس في التربية أنها لا بد أن تبدأ من الفرد ، فأصلاح الفرد هو الأساس.

وطريقته في التربية هي توعية هذا النشء بالفكرة الصحيحة كما ذكر الإبراهيمي عن اتفاقهما في المدينة: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها سنة ١٩١٣ في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم وإنما نربيه على فكرة صحيحة" (٢).

وينتقد ابن باديس مناهج التعليم التي كانت سائدة حين تلقيه العلم والتي كانت تهتم بالفروع والألفاظ - فيقول: "واقصرنا على قراءة الفروع الفقهية ، مجردة بلا نظر ، جافة بلا حكمة ، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة ، تفني الأعمار قبل الوصول إليها" (٣).

أما إنتاجه العلمي فهو ما جمع بعد من مقالاته في "الشهاب" وغيرها ومن دروسه في التفسير والحديث (٤).

الهوامش :

١ - د. عمار الطالبي: ابن باديس.. حياته وآثاره ١٣٨/٢ ، ط دار الغرب الإسلامي.

٢ - د. الخطيب: جمعية العلماء المسلمين ، ص ١٢٩.

٣ - المصدر السابق ص ١٤١

٤ - مع الأسف لم يصلنا كل ما كتبه أو كل ما ألقاه من دروس في التفسير والحديث. وقد جُمع ما نشر في (الشهاب) من افتتاحيات تحت عنوان "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" بإشراف محمد الصالح رمضان ، وتوفيق شاهين. وحاول الدكتور عمار الطالبي جمع آثاره كلها ، ولكن لا يزال هناك أشياء لم تُجمع.

الشيخ البشير الإبراهيمي

زميل ابن باديس في قيادة الحركة الإصلاحية ، ونائبه في رئاسة جمعية العلماء ، ورفيق نضاله لتحرير عقل المسلم من الخرافات والبدع. ولد عام ١٨٨٩م في قرية (سيدي عبد الله) من نواحي (سطيف) التابعة لمدينة قسنطينة. تلقى تعليمه الأولي على والده وعمه ؛ فحفظ القرآن ودرس بعض المتون في الفقه واللغة. غادر الجزائر عام ١٩١١ ملتحقاً بوالده الذي كان قد سبقه إلى الحجاز ، وتابع تعليمه في المدينة ، وتعرف على الشيخ ابن باديس عندما زار المدينة عام ١٩١٣ ، غادر الحجاز عام ١٩١٦ قاصداً دمشق، حيث اشتغل بالتدريس، وشارك في تأسيس المجمع العلمي الذي كان من غاياته تعريب الإدارات الحكومية، وهناك التقى بعلماء دمشق وأدبائها، ويتذكرهم بعد ثلاثين سنة من عودته إلى الجزائر فيكتب في (البصائر) العدد ٦٤ عام ١٩٤٩: "ولقد أقيمت بين أولئك الصحب الكرام أربع سنين إلا قليلاً ، فأشهد صادقاً أنها هي الواحة الخضراء في حياتي المجدبة ، وأنها هي الجزء العامر في عمري الغامر ، ولا أكذب الله ، فأنا قرير العين بأعماله العلمية بهذا الوطن (الجزائر) ولكن ... مَنْ لي فيه بصدر رحب ، وصحب كأولئك الصحب ؛ ويا رعى الله عهد دمشق الفيحاء وجادتها الهوامع وسقت ، وأفرغت فيها ما وسقت ، فكم كانت لنا فيها من مجالس نتناقل فيها الأدب ، ونتجاذب أطراف الأحاديث العلمية...".

في عام ١٩٢٠ غادر الإبراهيمي دمشق إلى الجزائر ، وبدأ بدعوته إلى الإصلاح ونشر العلم في مدينة (سطيف) ، حيث دعا إلى إقامة مسجد حر (غير تابع للإدارة الحكومية) وفي عام ١٩٢٤ زاره ابن باديس وعرض عليه فكرة إقامة جمعية العلماء ، وبعد تأسيس الجمعية أُختير الإبراهيمي نائباً لرئيسها ، وانتدب من قبل الجمعية لأصعب مهمة وهي نشر الإصلاح في غرب الجزائر وفي مدينة وهران وهي المعقل الحصين للصوفية الطرقيين، فبادر إلى ذلك وبدأ ببناء المدارس الحرة ، وكان يحاضر في كل مكان يصل إليه، وهو الأديب البارِع والمتكلم المفوّه، وامتد نشاطه إلى تلمسان وهي واحة الثقافة العربية في غرب الجزائر وقامت قيامة الفئات المعادية من السياسيين والصوفيّين وقدموا العرائض للوالي الفرنسي؛ يلتمسون فيها إبعاد الشيخ الإبراهيمي ، ولكن الشيخ استمر في نشاطه ، وبرزت المدارس العربية في وهران.

وفي عام ١٩٣٩ كتب مقالاً في جريدة (الإصلاح) ؛ فنفته فرنسا إلى بلدة (أفلو) الصحراوية ، وبعد وفاة ابن باديس انتخب رئيساً لجمعية العلماء وهو لا يزال في المنفى ولم يُفرج عنه إلا عام ١٩٤٣ ، ثم اعتقل مرة ثانية عام ١٩٤٥ وأُفرج عنه بعد سنة. وفي عام ١٩٤٧ عادت مجلة (البصائر) للصدور ، وكانت مقالات الإبراهيمي فيها في الذروة العليا من البلاغة ومن الصراحة والنقد القاسي لفرنسا وعملاء فرنسا. يقول عن زعماء الأحزاب السياسية:

"ومن خصومها (أي الجمعية) رجال الأحزاب السياسية من قومنا من أفراد وأحزاب يضادونها كلما جروا مع الأهواء فلم توافقهم ، وكلما أرادوا احتكار الزعامة في الأمة فلم تسمح لهم ، وكلما طالبوا تأييد الجمعية لهم في الصغائر - كالانتخابات - فلم تستجب لهم ، وكلما أرادوا تضليل الأمة وابتزاز أموالها فعارضتهم" (١).

ودافع في (البصائر) عن اللغة العربية دفاعاً حاراً: "اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ، ولا دخيلة ، بل هي في دارها وبين حمايتها وأنصارها ، وهي ممتدة الجذور مع الماضي مشددة الأواصر مع الحاضر ، طويلة الأفنان في المستقبل" (٢).

واهتمت (البصائر) بالدفاع عن قضية فلسطين ؛ فكتب فيها الإبراهيمي مقالات رائعة. عاش الإبراهيمي حتى استقلت الجزائر ، وأمّ المصلين في مسجد (كتشاوة) الذي كان قد حُوّل إلى كنيسة ، ولكنه لم يكن راضياً عن الاتجاه الذي بدأت تتجه إليه الدولة بعد الاستقلال ؛ فأصدر عام ١٩٦٤ بياناً ذكر فيه: "إن الأسس النظرية التي يقيمون عليها أعمالهم يجب أن تنبعث من صميم جذورنا العربية الإسلامية لا من مذاهب أجنبية".

تُوفي - رحمه الله - يوم الخميس في العشرين من أيار (مايو) عام ١٩٦٥. بعد أن عاش حياة كلها كفاح لإعادة المسلمين إلى دينهم القويم ؛ فجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

الهوامش :

١- د.الخطيب: جمعية العلماء ، ص١٥٥،

٢ - المصدر السابق ، ص١٥٦.

الشيخ العربي التبسي

أحد أعمدة الإصلاح في الجزائر ، وأمين عام جمعية العلماء والمجاهد البارز الذي خطفته يد التعصب والغدر الفرنسية عام ١٩٥٧ ولم يُسمع له ذكر بعدها. وُلد الشيخ العربي عام ١٨٩٥ في بلدة (ايسطح) من أعمال (تبسة) التابعة لقسنطينة. حفظ القرآن في قرينته ثم انتقل إلى تونس لتلقي العلم في زاوية (الشيخ مصطفى بن عزوز) ، انتقل بعدها إلى جامع الزيتونة ؛ فنال منه شهادة الأهلية وعزم على الانتقال إلى القاهرة لمتابعة التحصيل العلمي في الأزهر.

عاد إلى الجزائر عام ١٩٢٧ واتخذ من تبسة مركزاً له وفي مسجد صغير في قلب المدينة انطلق الشيخ في دروسه التعليمية وواصل الليل بالنهار لإنقاذ هذا الشعب من الجهل وذل الاستعمار ، وبدأت آثار هذا الجهد تظهر في التغيير الاجتماعي والنفسي لأهل تبسة؛ حيث بدأت تخفتي مظاهر التأثر بالفرنسيين وبدأ الناس يلتفون حول رجال الإصلاح.

وكالعادة ضيق على الشيخ ، فنصح ابن باديس بالانتقال إلى غرب الجزائر ، فاستجاب لذلك ، ولكن أنصاره في تبسة ألحوا عليه بالعودة وأسسوا مدرسة طلبوا منه أن يكون أول مدير لها. وبعد وفاة ابن باديس ونفي الإبراهيمي اتجهت الأنظار إلى الشيخ العربي ليحمل المسؤولية ويتابع الرسالة الإسلامية وتوافد إليه طلاب العلم من كل مكان ، وفي عام ١٩٤٧ تولى العربي إدارة معهد ابن باديس في قسنطينة فقام بالمهمة خير قيام. يقول عنه الإبراهيمي: "والأستاذ التبسي - كما شهد الاختبار وصدق التجربة - مدير بارع ومربٍ كامل خرجته الكليتان الزيتونة والأزهر في العلم وخرجه القرآن والسيرة النبوية ، فجاءت هذه العوامل في رجل يملأ جوامع الدين ومجامع العلم ومحافل الأدب".

وفي عام ١٩٥٦ انتقل الشيخ إلى العاصمة لإدارة شؤون الجمعية فيها ، واستأنف دروسه في التفسير وكان شجاعاً لا يخاف فرنسا وبطشها ، يتكلم بالحق ، ويدعو للجهاد ولم يأبه لتحذير الناصحين المحبين له الذين خافوا عليه من فرنسا والتي كانت تعلم مكانته بين صفوف الجماهير ، وأثره عندما يدعوها للجهاد ، وهو ليس من الناس الذين يتكلمون ولا يفعلون ، بل يقول: "لو كنت في

صحتي وشبابي ما زدت (١) يوماً واحداً في المدينة؛ أُسرِع إلى الجبل، فأحمل السلاح، فأقاتل مع المجاهدين".

وفي ١٧ من نيسان (أبريل) عام ١٩٥٧ امتدت يد (الجيش السري) الذي شكَّله غلاة الفرنسيين المتعصبين لتخطف الشيخ العربي من منزله، وليكون في عداد الشهداء، رحمه الله رحمة واسعة. هؤلاء أبرز فرسان جمعية العلماء التي كان لها الدور الأكبر في إبراز هوية الجزائر العربية الإسلامية، بل لها دور بارز في الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ولعلنا - ومن خلال (البيان) - نكون قد قمنا ببعض الواجب تجاه هذه الجمعية وهؤلاء المصلحين.

الهوامش:

١- زدت: أقيمت أو بقيت بلغة أهل الجزائر.

خواطر في الدعوة المؤسسات القديمة

محمد العبدية

عندما نتحدث عن التجديد فإنما نأمل من المسلم أن يصوغ شخصيته لتكون عندها القابلية للتجديد، فلا تخضع لمألوفات وعادات غير صحيحة، ولا تجمد عند فكر معين لا تتجاوزه وقد تبين خطؤه أو أنه قيل في ظروف غير موجودة الآن. قد يكون المسلم معجباً بأعلام التجديد في العصور الإسلامية المتعاقبة ويدعو إلى التجديد في كل عصر، ولكنه لا ينتبه لنفسه أنه - وهو يمارس الدعوة - قد جمد على أسلوب معين وأفكار طرحت قبل سنوات كان قد قرأها في بدايات عهده بالدعوة ولا يستطيع التحول عنها؛ فالنفس البشرية تميل للمحافظة على ما ألفته، وكثير من الناس لا يتعبون أنفسهم بالتفكير المستمر والنمط الذي عرفوه أسهل عليهم، ولا ينتشل نفسه من هذه (السهولة) إلا مَنْ أوتي عزيمة أكيدة للتطلع إلى الأفضل دائماً، وملاحظة التغيرات المستجدة، والظروف الطارئة، فهو في تجديد مستمر بين كل فينة وأخرى.

إن بعض الناس قد يحيطون مؤسسة ما - وخاصة إذا عُمرت طويلاً - بهالة من التقديس، وعندئذ فإن انتقادها أو التدخل في شؤونها يعتبر ضرباً من التطاول على الحرمات والانتهاك للمقدسات!، وفي مثل هذه الأحوال فإن صبّ تيار جديد قوي لدفع التيار الأول يكون من الصعوبة بمكان، مع أن هذا يعطي الدعوة حيوية وقوة، ولو عمر المؤسسات الأوائل لغيروا كثيراً من اجتهاداتهم لأنهم سيعاصرون أحداثاً لم تكن في أوائل الدعوة، ولا يعارض التجديد في مثل هذه الظروف إلا غبي مشغوف بعبادة الأشخاص، أو انتهازي يريد بقاء الوضع على ما كان ليستفيد هو شخصياً من هذا البقاء، وقد تكون لهم مصلحة أكيدة في قيام بعض العادات وترسيخها؛ لأنهم يستمدون من هذه العادات قوتهم وسلطتهم ولذلك كان من حظ البشرية أن ينبغ فيهم بين الفينة والأخرى من يحملهم على التفكير حملاً.

إن تيار الحياة متدفق متجدد والذي لا يلاحظ التغيرات سيعيش بعيداً عن عصره، بعيداً عن واقعه، يتفوق على نفسه مردداً ما سمعه من عشرات السنين، فالذين قرأوا ما كُتب عن جمال الدين الأفغاني قبل ثلاثين سنة ولم يقرأوا ما كُتب عنه بعدئذ وما تكشفت عنه الحقائق، هؤلاء يتعجبون عندما يذكره أحد بنقد أو تقويم، فهو - بنظرهم - مصلح الشرق وملهمه، والذين تردد على أسماعهم

اسم محمد علي جناح - كمؤسس لباكستان - كانوا يضعونه في مصاف العظماء الكبار، ثم تبين أن الرجل غربي النزعة مدخول العقيدة ، وهذا ما يفسر قيام باكستان كأرض مستقلة للمسلمين ولكن لم تقم باكستان كدولة تحكم بالإسلام.

إن التحدي الذي يواجه المسلمين في هذا العصر ويحتاج إلى التجديد في طرائق الفكر والعمل هو: كيف ننفذ منهج أهل السنة ونستفيد من منتجات هذا العصر دون التنازل عن الفكرة والمبدأ؟.

والمطلوب هو التنفيذ العملي، وليس الكلام في الكتب والمجلات عن (الأصالة والمعاصرة) أو (كيف نجمع بين ثقافتنا وتقنية الغرب..).

فهل يشعر المسلمون بخطر التسويف والجمود في حين أن القافلة تسير؟!!

حكمة إرسال الرسل

الشيخ: محمد صالح العثيمين

لما كان العقل البشري لا يتمكن من عبادة الله - تعالى - على الوجه الذي يرضاه ويحبه ، وكذلك لا يستطيع التنظيم والتشريع المناسب للأمة على اختلاف طبقاتها ؛ إذ لا يحيط بذلك إلا الله وحده ؛ كان من حكمة الله ورحمته أن أرسل الرسل وأنزل الكتب لإصلاح الخلق وإقامة الحجة عليهم ، قال - تعالى - : ((رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)) [النساء: ١٦٥].

فحكمة إرسال الرسل تتلخص في:

الأول: إقامة الحجة على الخلق حتى لا يحتج أحد على الله فيقول ((لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَحْزِيَ)) [طه: ١٣٤] ، لقد قطع الله هذه الحجة من أساسها بإرسال الرسل وتأييدهم بالآيات البينات الدالة على صدقهم وصحة نبوتهم وسلامة طريقتهم.

الثاني: توجيه الناس وإرشادهم لما فيه الخير والصلاح لهم في دينهم ودنياهم ؛ فإن الناس مهما أوتوا من الفهم والعقل والذكاء لا يمكنهم أن تستقل عقولهم بالتنظيم العام المصلح للأمة بأكملها كأمة متماسكة متكافئة متساوية في إعطاء ذي الحق حقه ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَّاش - وهي الدواب التي تقع في النار - يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها" رواه البخاري.

فالرسل يذودون الناس عما يضرهم ويدعونهم إلى ما ينفعهم.

الثالث: جمع الأمة على دين واحد ورجل واحد ، فإن انقياد الناس لما يشاهدونه من الآيات المؤيدة للأنبياء أسرع وأقوى وأشد تماسكاً ؛ فإنهم يجتمعون عليه عن عقيدة راسخة وإيمان ثابت فيحصل الصلاح والإصلاح.

تأييد الرسل بالآيات وكونها من جنس ما شاع في عصرهم:

لو جاء رجل من بيننا وقال إنه نبي يُوحَى إليه ، وأن طاعته فرض ، وأن من عصاه فله النار ، ومن أطاعه فله الجنة ، ثم نظم قوانين ، وسن سنناً ، وقال امشوا على هذه النظم ، وإلا فلکم النار ؛ ما كان أحد ليقبل منه - مهما بلغ في الصدق والأمانة - حتى يأتي ببرهان يدل على صدقه ، فلو رد أحد دعوة هذا المدعي الذي لم يأت ببرهان على صدقه ما كان ملوماً ، فالقضية التي تسلم بها العقول أن المدعي عليه البينة وإلا فلا يجب قبول مدّعا.

وإتماماً لإقامة الحجة بالرسول على الخلق أيد الله رسله بالآيات المبينات الدالة على صدقهم ، وأنهم رسل الله حقاً ، فاصطفى الله للرسالة من الناس من يعلم أنه أهل للرسالة وكفؤ لها ومستطيع للقيام بأعبائها والصبر على مكائدها ((الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)) [الحج: ٧٥] ، ((اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)) [الأنعام: ١٢٤] ، فاصطفى الرجال الكُمَّل الأتقياء أهل الحضارة واللين والفهم ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى)) [يوسف: ١٠٩] (أي أهل المدن) ، فإن القرية هي المدينة كما سمي الله مكة قرية ((وَكَايِنَ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ)) [محمد: ١٣] ، وسماها أم القرى ((لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا)) [الأنعام: ٩٢].

وما بعث الله رسولاً إلا أيدته بالآيات على صدق رسالته وصحة دعواه ، قال الله - تعالى - : ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ)) [الحديد: ٢٥] ، أي بالآيات البينات الواضحات التي لا تدع مجالاً للشك في صدق ما جاء به الرسول المرسل ؛ قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : "ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من كل الآيات ما آمن على مثله البشر" رواه البخاري ومسلم.

وهذا من حكمة الله العليا ورحمته بعباده أن أيد الرسل بالآيات لئلا يبقى أمرهم مشكلاً ؛ فيقع الناس في الحيرة والشك ولا يطمئنون إلى ما جاءوا به ، وهذه الآيات التي جاء بها الرسل لا بد أن تكون خارجة عن طوق البشر ؛ إذ لو كانت في استطاعتهم ما صح أن تكون آية لإمكان البشر أن يدعي الرسالة ويأتي بها إذا كانت تحت قدرته ، ولكن آيات الرسل لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلهما وقد جاءت كبريات الآيات من جنس ما برز به أهل العصر الذي بعث فيه ذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - كما قرر ذلك أهل العلم ، واستشهدوا على ذلك بآيات موسى وعيسى ومحمد - عليهم الصلاة والسلام - فإن عهد موسى ترقى فيه السحر حتى بلغ السحرة الغاية في المهارة والحدق ؛ فكان من أكبر الآيات التي جاء بها موسى ما يربو على فعل السحرة وهو يشبه في ظاهره السحر وإن كان يختلف اختلافاً كبيراً ؛ لأن ما جاء به موسى حقيقة ما يراه الناظر ، بخلاف السحر فإنه يخيل للناظر وليست حقيقته كما يراه ، فكان من الآيات التي جاء بها موسى عصاه التي يلقيها فتكون حية ثعباناً ، ويأخذها فتعود في يده عصاه الأولى ، وقد ألقاها عند فرعون حين دعاه إلى الإيمان بالله ، وكذلك كان موسى يُدخل يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، أي من غير عيب وبرص ، وقد أخرجها كذلك عند فرعون حين دعاه إلى الإيمان بالله ، فلما رأى فرعون هاتين الآيتين كابر وقال للملأ حوله: ((إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠)) [الأعراف] ، وقد ألقى موسى عصاه كذلك عندما ألقى السحرة حبالهم وعصيتهم في المجتمع العظيم الذي قرره موسى حسب طلب فرعون أن يجعل بينه وبينه موعداً ليغالبه في سحره كما زعم فلما اجتمع السحرة وألقوا حبالهم وعصيتهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون ؛ فجاءوا بسحر عظيم حتى كانت تلك الحبال والعصي يخيل إلى رائيتها أنها تسعى ؛ ألقى موسى عصاه بأمر الله - تعالى - فإذا هي تلقف ما يأفكون فتلتهم هذه الحبال والعصي عن آخرها ، فعلم السحرة - وهم أهل السحر وأعلم الناس به - أن ما جاء به موسى ليس بسحر وإنما هو من الأمور التي لا يمكن للبشر معارضتها ((فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ)) [الشعراء: ٤٦-٤٨].

وكذلك كان لهذه العصا مجال آخر حينما كان موسى يستسقي لقومه فيضرب بها الحجر فيتفجر منه اثنتا عشرة عيناً بقدر قبائل بني إسرائيل.

وكان لها مجال آخر أيضاً حينما وصل موسى وقومه إلى البحر وخلفهم فرعون بجنوده فأوحى الله إليه أن اضرب بعصاك البحر فانفلق اثني عشر طريقاً فسلكه موسى وقومه فنجوا.

وفي زمن عيسى - عليه الصلاة والسلام - كان علم الطب مترقياً إلى حد كبير ؛ فجاءت آياته بشكل ما كان مترقياً في عهده من الطب إلا أنه أتى بأمر لا يستطيع الطب مثله ، فكان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فتكون طيراً بإذن الله ، والناس يشاهدون ذلك ، وكان أيضاً يبriء الأكمه - وهو الذي خلق أعمى - ويبريء الأبرص بإذن الله - تعالى - وهذان المرضان من الأمراض التي لا يستطيع الأطباء في ذلك الوقت - وإلى هذا الوقت فيما أعلم - أن يبriئوهما ، بل قال بعض العلماء إنه إنما سمي المسيح ؛ لأنه كان لا يسمح ذا عاهة إلا بريء وذكر في القرآن أن عيسى يحيي الموتى بإذن الله ، وفي آية أخرى يُخرج الموتى وهذان عملاً مختلفان؛ العمل الأول إحياء الموتى قبل دفنهم ، والثاني إحيائهم وإخراجهم من قبورهم بعد الدفن ، ولا ريب أن هذه الآيات التي أعطيها عيسى - عليه الصلاة والسلام - يعجز عن مثلها البشر ؛ فتأييده بها دليل وبرهان على أنه رسول من الله الخالق القادر عليها.

وقد يؤيد الله الرسل بآيات أخرى ولكن أبرز الآيات وأعظمها يكون من جنس ما شاع في عصر الرسول ؛ ولذا أيد الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم- بآيات كثيرة أبرزها وأعظمها هذا القرآن الكريم ، الذي هو كلام رب العالمين ، ((لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)) [فُصِّلَتْ: ٤٢] ؛ لأنه شاع في عصر النبي صلى الله عليه وسلم- فن البلاغة والفصاحة وصار البيان والفصاحة معترك الفخر والسيادة كما يعلم ذلك من تتبع التاريخ.

معجزات الأنبياء:

معجزات الأنبياء هي الآيات التي أعجزوا بها البشر أن يأتوا بمثلها ، والله - تعالى - يسميها آيات ، أي علامات دالة على صدق الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - فيما جاءوا به من الرسالة. والمعجزة - في اصطلاح العلماء :- "أمر خارق للعادة (أي جار على خلاف العادة الكونية التي أجراها الله - تعالى - في الكون) ، سالم عن المعارضة ، يُظهره الله - تعالى - على يد الرسول تأييداً له" ، مثل انشقاق القمر ، ونبع الماء من أصابع يد النبي صلى الله عليه وسلم- وغير ذلك مما سيمر بك.

فالأمر الجاري على وفق العادة لا يسمى معجزة ، كما لو قال قائل أريكم معجزة أن لا يمضي ساعة حتى تطلع الشمس ، وكان ذلك قبل طلوع الشمس بأقل من ساعة ، فإن الشمس إذا طلعت في زمن طلوعها لا يعد طلوعها معجزة لهذا القائل ؛ لأن طلوعها في وقته على وفق العادة وليس خارقاً للعادة.

وإذا كان الشيء الخارق للعادة غير سالم من المعارضة فلا يسمى معجزة ، مثل الأمور التي تقع من السحرة والمشعبذين ونحوهم ؛ لأن الأمور التي يأتون بها يمكن معارضتها بفعل ساحر أو مشعبذ آخر.

وإذا كان الشيء الخارق للعادة جارياً على يد ولي من الأولياء فلا يسمى معجزة اصطلاحاً ، وإنما يسمى كرامة ، ولكن هذه الكرامة الحاصلة للولي هي في الواقع معجزة للرسول الذي كان الولي متبع له ؛ إذ الكرامة دليل على صحة طريقة ذلك الولي.

فوائد آيات الأنبياء ومعجزاتهم:

إن الآيات التي جاء بها الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ذات فوائد كثيرة نلم منها بما يلي:
١- بيان قدرة الله - تعالى - فإن هذه الآيات لا بد أن تكون أمورا خارقة للعادة كشاهد دليل على صحة ما جاء به الرسل ، وإذا كانت خارقة للعادة كانت دليلاً على قدرة الخالق وأنه قادر على تغيير مجرى

العادة التي كان الناس يألفونها ، ولذا تجد المرء يندهش عند هذه الآيات ولا يمكنه إلا أن يصدق برسالة الرسول الذي جاء بها حيث جاء بما لا يقدر عليه أحد سوى الله - عز وجل - .
 ٢ - بيان رحمة الله بعباده ؛ فإن هذه الآيات التي يرونها مؤيدة للرسول تزيد إيمانهم وطمأنينتهم لصحة الرسالة ومن ثم يزداد يقينهم وثوابهم ولا يحصل لهم حيرة ولا شك ولا ارتباك .
 ٣ - بيان حكمة الله البالغة ؛ حيث لم يرسل رسولا فيدعه هملأ من غير أن يؤيده بما يدل على صدقه وإن المرء لو أرسل شخصا بأمر مهم من غير أن يصحبه بدليل أو أمارة على صحة إرساله إياه لعد ذلك سفهاً وموقفاً سلبياً من هذا الرسول ، فكيف برسالة عظيمة من أحكم الحاكمين؟! ، إنها لا بد أن تكون مؤيدة بالبراهين والآيات البينات .

٤ - رحمة الله بالرسول الذي أرسله الخالق ؛ حيث يبسر قبول رسالته بما يجريه على يديه من الآيات ليتسنى إقناع الخلق بطريقة لا يستطيعون معارضتها ولا يمكنهم ردها إلا جحوداً وعناداً ؛ قال الله - تعالى - ((فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ)) ، أي لما يرون من الآيات الدالة على صدقك ، ((وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ)) [الأنعام: ٣٣] .
 ٥ - إقامة الحجة على الخلق ؛ فإن الرسول لو أتى بدون آية دالة على صدقه لكان للناس حجة في رد قوله وعدم الإيمان به ، فإذا جاء بالآيات المقنعة الدالة على رسالته لم يكن للناس أي حجة في رد قوله .

بيان أن هذا الكون خاضع لقدرة الله وتدبيره ، ولو كان مدبراً لنفسه ، أو طبيعة تتفاعل مقوماتها وتظهر من ذلك نتائجها وأثارها - لما تغيرت فجأة واختلفت عادة بمجرد دعوى شخص لتؤيده بما ادعاه .

فانظر إلى الأكوان الفلكية التي لا تتغير بعوامل الزمن إلا بإرادة الله ، ولقد أجراها الله - تعالى - كما قدر لها أن تجري منذ خلقها الله حتى يأذن بانتهائها .

آيات النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح":
 "والآيات والبراهين الدالة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - كثيرة وهي أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ، ويسمونها من يسميها من النظر (معجزات) ، وتسمى (دلائل النبوة) و(أعلام النبوة) ونحو ذلك ، وهذه الألفاظ التي سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصد من لفظ المعجزات ؛ ولهذا لم يكن لفظ المعجزات موجوداً في الكتاب والسنة ، وإنما فيه لفظ الآية والبينة والبرهان" . قال - رحمه الله - : "والآيات نوعان منها ما مضى وصار معلوماً بالخبر ، ومنها ما هو باق إلى اليوم كالقرآن والإيمان والعلم اللذين في أتباعه ، وكشريعته التي جاء بها.." .

ومن هذه الآيات:

١ - القرآن الكريم وهو أعظم آيات النبي - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنه الآية السابقة الباقية ، فمنذ أوحى الله إليه به حتى اليوم وهو آية شاهدة على نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - .
 فالقرآن كلام الله - تعالى - لفظاً ومعنى ، تكلم الله به نفسه كلاماً حقيقياً ؛ فأوحاه إلى جبريل ، ثم نزل به جبريل على قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، فواعاه وحفظه ، وتكفل الله له بحفظه ؛ حيث قال: ((إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعَ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)) [القيامة: ١٧-١٩] . وإذا كان الله قد تكفل ببيانه ؛ فمعناه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - سيحفظه ويعيه حتى يبلغه للناس ويبينه لهم ، قال تعالى: ((إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)) [الحجر: ٩] .

والقرآن آية من آيات النبي صلى الله عليه وسلم- الدالة على صدقه من عدة أوجه:
الأول: عجز الخلق كلهم أن يأتوا - مجتمعين أو منفردين - بمثل هذا القرآن ؛ قال الله - تعالى - : ((قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً)) [الإسراء: ٨٨] ، يعني لا يمكن أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم معيناً لبعض ؛ وذلك لأن القرآن كلام الله ولا يمكن أن يماثله شيء من كلام المخلوقين ، لا من حيث اللفظ ، ولا من حيث المعنى ، ولا من حيث التأثير ، ولا من حيث الثمرة والآثار الحميدة.

الثاني: من حيث اللفظ في قوته ورسالته وتركيبه وأسلوبه ونظمه وبيانه ووضوحه وشموله للمعاني العديدة الواسعة التي لا تزال تظهر عند التأمل والتفكير ، حتى إنك لتسمع الآية التي ما تزال تقرؤها فينفدح لك منها معنى جديد كأنك لم تسمع الآية من قبل وكان الآية نزلت لتوها من أجله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "نفس نظم القرآن وأسلوبه عجيب بديع ، ليس من جنس أساليب الكلام المعروفة ، ولم يأت أحد بنظير هذا الأسلوب ، فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرجز ولا الرسائل ولا الخطابة ، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس عربهم وعجمهم ، ونفس فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيب خارق للعادة ليس له نظير في كلام جميع الخلق". وقال الشيخ محمد رشيد رضا - في كتابه "الوحي المحمدي": "إن القرآن لو أنزل بأساليب الكتب المألوفة المعهودة وترتيبها لفقد بهذا الترتيب أخص مراتب إعجازه المقصود بالدرجة الثانية". وقال: "لو كان القرآن مرتباً مبوباً - كما ذكر - لكان خالياً من أعظم مزاياه شكلاً وموضوعاً ، يعلم هذا وذلك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها ببعضها ببعض ، وتفريقها في سوره الكثيرة الطويلة منها والقصيرة بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة المؤثرة في القلوب المحركة للشعور المناهية للسامة والمَلَل... إلى أن قال: "والقابلة لأنواع أخرى من الإلقاء الخطابي في الترغيب والترهيب والتعجب والتعجيب والتكريه والتحبيب والزرر والتأنيب واستفهام الإنكار والتقريب والتهمك والتوبيخ بما لا نظير له في كلام البشر من خطابة ولا شعر ولا رجز ولا سجع ، فهذا الأسلوب الرفيع في النظم البديع وبلاغة التعبير الرفيع كان القرآن كما ورد في معنى وصفه ، لا تبلى جدته ولا تخلقه كثرة التردد". اهـ.

الوجه الثالث من إعجاز القرآن من حيث أهدافه العالمية وآدابه الكاملة وتشريعاته المصلحة ، فقد جاء بإصلاح العقيدة من الإيمان بالله وبما له من الأسماء والصفات والأفعال ، والإيمان بجميع ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وما يتعلق بذلك ، وجاء بإخلاص العبادة لله وتحرير الفكر والعقل والشعور من عبادة غير الله والتعلق به خوفاً ورجاءً ومحبة وتعظيماً.

وجاء بالآداب الكاملة - التي يشهد بكمالها وصلاحتها وإصلاحها كل عقل سليم - أمر بالبر والصلة والصدق والعدل والرحمة والإحسان ، ونهي عن كل ما يخالف ويناقض من الظلم والبغي والعدوان.. أما تشريعاته فناهيك بها من نظم مصلحة للعباد والبلاد في المعاش والمعاد ، وإصلاحاً في العبادة ، وإصلاحاً في المعاملة في الأحوال الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والفردية والكمالية ، فيما لو اجتمع الخلق كلهم على سنّ نظم تماثلها أو تقاربها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

الوجه الرابع من إعجاز القرآن قوة تأثيره في النفوس والقلب ؛ فإنه ينفذ إلى القلب نفوذ السهم في الرمية ، ويسيطر على العقول سيطرة الشمس على أفق الظلام ، كما شهد بذلك الموالى والمعادي ، حتى إن الرجل العادي - فضلاً عن المتعلم - ليسمع القرآن فيجد من نفسه جاذبية عظيمة تجذبه إليه قسراً ، يعرف أن ليس هذا من كلام البشر ، وقصة سماع الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة له معروفة في السيرة. ولقد كان بعض الكبراء من قريش يأتون ليلاً خفية يستمعون إلى تلاوة النبي -

صلى الله عليه وسلم- للقرآن كما جرى ذلك لأبي جهل وأبي سفيان وغيرهما. وهذه القصص وأمثالها تدل دلالة ظاهرة على تأثير القرآن في النفوس وأخذها بمجامع القلوب. ولكن هذا التأثير قد لا يظهر لكل أحد ، إنما يظهر لمن كان له ذوق ومعرفة بأساليب الكلام وبلاغة اللسان.

ومن يكُ ذا فم مر مريض يجد مُراً به الماء الزُّلالاً

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - بعد أن ذكر أنواعاً من إعجاز القرآن: "وهذه الأمور من ظهرت له من أهل العلم والمعرفة ظهر له إعجازه من هذا الوجه ومن لم يظهر له ذلك اكتفى بالأمر الظاهر الذي يظهر له ولأمثاله كعجز جميع الخلق عن الإتيان بمثله مع تحدي النبي صلى الله عليه وسلم- وإخباره بعجزهم فإن هذا أمر ظاهر لكل أحد".

الوجه الخامس من إعجاز القرآن تلك الآثار الجليلة التي حصلت لأمة القرآن باتباعه والعمل بأهدافه السامية وتعاليمه الرشيدة ، فقد ارتقى بأمة القرآن التي اعتنت به لفظاً وفهماً وتطبيقاً ، ارتقى بها إلى أوج العلى في العبادة والآداب والكرامة والعزة ، لقد عرف سلف هذه الأمة قيمة هذا القرآن الكريم فكانوا لا يتجاوزون عشر آيات حتى يتعلموها وما فيها من العلم والعمل ؛ فتعلموا القرآن والعلم والعمل جميعاً ، فسادوا جميع العالم ، وصارت لهم العزة والغلبة والظهور والتمكين في الأرض والعلوم النافعة ، مع أنهم كانوا قبل ذلك متفرقين ضالين أميين مغلوبين بين الأمم ، ولن يعود لأمة القرآن ذلك العز والظهور والغلبة حتى يرجعوا إلى المعين الذي روي به أسلافهم ، فيأخذوا منه صافياً من غير كدر ، لن يعود لهم ذلك حتى يرجعوا إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، ويتفهموها ويطبقوها ، اعتقاداً وقولاً وعملاً فعلاً وكيفاً ، مؤمنين بذلك، معتقدين أن هذا هو طريق الصلاح والإصلاح والسلامة.

وإن من المؤسف حقاً أن ترى الكثير من المسلمين اليوم لا يلتفتون إلى الكتاب والسنة ولا يتفهمونها ، بل أكثرهم لا يقرأ من القرآن في عامه كله إلا ما يقرؤه في صلاته هذا مع قلة تفهم في اللغة العربية وآدابها وأساليبها ، وليس عندهم ذوق لغوي شرعي لكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، وإنا لنرجو من الله - تعالى - أن يهيئ لأمة القرآن من أمرها رشداً ، وأن يبعث لها قادة فكر وسياسة لما فيه الخير والصلاح والرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح ؛ فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها.

٢-ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم- ما أظهره الله شاهداً على صدقه من الآيات الأفقية ؛ كما قال - تعالى - : ((سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)) [فصلت: ٥٣] ، ولذلك أمثلة:

المثال الأول: انشقاق القمر ، فقد انشق القمر وصار فرقتين ، وشاهد الناس ذلك وقد أشار الله إلى ذلك في القرآن ؛ قال الله - تعالى - : ((اقتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ * وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ)) [القمر: ١-٣] وقد أجمع العلماء على وقوع ذلك في عهد النبي صلى الله عليه وسلم- قبل الهجرة ، وقد رآه الناس بمكة وقال النبي صلى الله عليه وسلم- حين رآه :- "اشهدوا اشهدوا" ، وقدم المسافرون من كل وجه فأخبروا أنهم رأوه. قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وجعل الآية في انشقاق القمر دون الشمس وسائر الكواكب ؛ لأنه أقرب إلى الأرض من الشمس والنجوم ، وكان الانشقاق فيه دون سائر أجزاء الفلك ؛ إذ هو للجسم المستنير الذي يظهر الانشقاق فيه لكل من يراه ظهوراً لا يُتَمَارَى فيه وأنه إذا قبل الانشقاق فقبول محله أولى بذلك وقد عاينه الناس وشاهدوه وكان النبي صلى الله عليه وسلم- يقرأ هذه السورة في المجمع

الكبار مثل صلاة العيدين ، كل الناس يقر بذلك ولا ينكره ولو لم يكن قد انشقق لأسرع الناس إلى تكذيب ذلك" اهـ.

وقد استبعد أناس وقوع انشقاق القمر وحاولوا تحريف معنى القرآن في ذلك وقد أخطأوا خطأ كبيراً في هذا الإنكار ؛ فالقرآن لا يتحمل المعنى الذي حرفوه إليه ، والنصوص الثابتة الكثيرة من الأحاديث صريحة في انشقاغه انشقاقاً حسيماً مشهوداً ، ولا يقدر في ذلك ما زعمه بعضهم من كونه لم يُنقل في تاريخ غير التاريخ الإسلامي ، فإن نقله في التاريخ الإسلامي كافٍ في ذلك ، وقد جاء به القرآن الكريم ، ولعل الناس الذين لم ينقلوه لم يشاهدوه ، لعله وقع وهم نيام أو كانوا في النهار ولم يشعروا به ، أو كان في تلك الساعة مانع من سحاب أو غيره ، وقد أخبر المسافرون الذين قدموا مكة بمشاهدته وهو لم يستمر فيما يظهر وإنما كان آية شاهدها الناس ثم عاد إلى حاله الأولى.

المثال الثاني: المعراج: فإنه من أكبر الآيات ؛ فقد أُسري بالنبي صلى الله عليه وسلم- في ليلة واحدة إلى بيت المقدس ، واجتمع هناك بالأنبياء ، وصلى بهم ، ثم عرج به جبريل حتى بلغ سدره المنتهى فوق سبع سموات ، وأوحى الله - تعالى - إليه ما أوحى ، وشاهد صلى الله عليه وسلم- من آيات الله الكبرى ما شاهد ومر بالأنبياء في كل سماء ، ورجع إلى مكة ، كل ذلك في ليلة واحدة ، مع بُعد المسافة الأرضية بين مكة وبين بيت المقدس ، ثم البعد العظيم بين السماء والأرض ، وبين السماء الدنيا وما فوقها إلى سدره المنتهى. وقد أخبر الله - تعالى - في القرآن عن الإسراء في سورة الإسراء ، وعن المعراج في سورة النجم إذا هوى.

المثال الثالث: نزول المطر باستسقائه مباشرة وإقلاع المطر باستصحائه مباشرة ، ففي صحيح البخاري وصحيح مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: "أصابني سنة - أي جذب - على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، فبينما النبي صلى الله عليه وسلم- يخطب في يوم الجمعة قام أعرابي فقال: يا رسول الله! ، هلك المال وجاع العيال ، فادعُ الله لنا ؛ فرفع يديه وما نرى في السماء قرعة - أي قطعة سحاب - فوالذي نفسي بيده ما وضعها حتى ثار السحاب أمثال الجبال ، ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحاور على لحيته ، فمُطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد ، حتى الجمعة الأخرى ، وتام ذلك الأعرابي أو غيره فقال: يا رسول الله! ، تهدم البناء وغرق المال فادعُ الله لنا ، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا ، فما يشير إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت فأقلع المطر وخرجنا نمشي في الشمس".

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم- ما رواه البخاري وغيره عن جابر - رضي الله عنه - قال: "عطش الناس يوم الحديبية ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم- بين يديه ركوة (إناء للماء) فتوضأ منها ثم أقبل الناس نحوه فقالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ به ونشرب إلا ما في الركوة التي عندك ، فوضع النبي صلى الله عليه وسلم- يده في الركوة ، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون ، قال: فشربنا وتوضأنا ، قيل لجابر: كم كنتم؟ ، قال: لو كنا مائة ألف لكفانا! ، كنا ألفاً وخمسمائة!".

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم- تكثير الطعام كما جرى ذلك يوم الخندق وجرى ذلك لأبي هريرة مع أهل الصفة.

ومن آيات النبي صلى الله عليه وسلم- ما وقع مطابقاً لما أخبر به صلى الله عليه وسلم- من أمور الغيب التي وقعت في عهده وبعده ولذلك أمثلة أيضاً:

المثال الأول: ما رواه مسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- يرينا مصارع أهل بدر قبل ابتداء القتال ، يقول

هذا: مصرع فلان غداً إن شاء الله ، هذا مصرع فلان ، فوالذي بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم- .

المثال الثاني: إخباره صلى الله عليه وسلم- عن ظهور نار في أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي صلى الله عليه وسلم- قال: لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى ، فقد خرجت هذه النار في جمادى الآخرة سنة ٦٥٤ شرق المدينة فأقامت نحواً من شهر ، وملأت الأودية وشاهد الناس أعناق الإبل ببصرى (وهي بلدة بالشام) ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وهذه النار كانت تحرق الحجر!".

ومن أمثلة ذلك ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم- مما سيكون من الفتن وتغير أحوال الناس وغير ذلك.

وآياته صلى الله عليه وسلم- كثيرة جداً وقد ذكر أهل العلم من ذلك الشيء الكثير ومن أوسع ما رأيت في ذلك تاريخ ابن كثير - رحمه الله - حيث كتب في آيات النبي مجلداً كبيراً ، وذكر أن جميع آيات الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قد جرى مثلها للنبي صلى الله عليه وسلم- أو ما هو أعظم منها. وهذه الآيات التي يجريها الله على أيدي أنبيائه وأوليائه كلها شاهدة بما له - تعالى - من كمال العلم والقدرة والرحمة ، وأن الأمور كلها بيده يجريها كما يشاء ، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

فله الحمد والمنة ، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه.

في رحاب كتاب الله

شكوى النبي الكريم من هجر القرآن العظيم

للشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله

((وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا))

[الفرقان: ٣٠] .

المناسبة:

لما ذكر - تعالى - ما قاله المشركون من الباطل في معارضة القرآن والإعراض والصد عنه ، وما قالوه من عبارات الحسرة والندامة يوم القيامة على ما كان منهم من ذلك في الدنيا ذكر ما قاله النبي - صلى الله عليه وسلم- من الشكوى لربه بهم من تركهم للقرآن العظيم وهجره.

المفردات:

مهجوراً: متروكاً مُقاطِعاً مرغوباً عنه. الرسول صلى الله عليه وسلم-: محمد.
وقومه: قريش.

التراكيب:

في قوله ((يا رب)): إظهار لعظيم التجائه وشدة اعتماده وتمايم تفويضه لمالكة ، ومدبر أمره وموالي الإنعام عليه. وفي التعبير عنهم بقومه وإضافتهم إليه ، وفي التعبير عن القرآن باسم الإشارة القريب بيان لعظيم جرمهم ، فتركهم للقرآن - وهو قريب في تناولهم - وقد آتاهم به واحد منهم أقرب الناس

إليهم ؛ فصدوا وأبعدوا في الصد عمن هو إليهم قريب من قريب. وهذا أقبح الصد وأظلمه. وفي قوله ((اتخذوا)).. الخ بيان أنهم جعلوا الهجر ملازماً له ووصفاً من أوصافه عندهم ، وذلك أعظم من أن يقال هجره ، الذي يفيد وقوع الهجران منهم دون دلالة على الثبوت والملازمة.

المعنى:

وقال الرسول شاكياً لربه إن قومي - الذين أرسلتني إليهم بالقرآن لأتلوه عليهم - قد صدوا عنه ؛ فتركوه وثبتوا على تركه وهجره.

استنتاج وعبر:

في شكوى النبي -صلى الله عليه وسلم- من هجر القرآن دليل على أن ذلك من أصعب الأمور عليه وأبغضها لديه ، وفي حكاية القرآن لهذه الشكوى وعيد كبير للهجرين بإنزال العقاب بهم إجابة لشكوى نبيه ، ولما كان الهجر طبقات ، أعلاها عدم الإيمان به فلكل هاجر حظه من هذه الشكوى وهذا الوعيد.

تنزيل:

ونحن - معشر المسلمين - قد كان منا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل وإن كنا به مؤمنين ، بسط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة ؛ فهجرناها ، وقلنا تلك أدلة سمعية لا تحصل اليقين ، وأخذنا في الطرائق الكلامية المعقدة وإشكالاتها المتعددة واصطلاحاتها المحدثه مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة، وبين القرآن أصول الأحكام وأمهاات مسائل الحلال والحرام ووجوه النظر والاعتبار ، مع بيان حكم الأحكام وفوائدها في الصالح الخاص والعام ؛ فهجرناها واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، محجة وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفني الأعمار قبل الوصول إليها ، وبين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها ومساوىء الأخلاق ومضارها ، وبين السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس، والسلامة من الخيبة بتدسيستها ؛ فهجرنا ذلك كله ، ووضعنا أوضاعاً من عند أنفسنا ، واصطلاحات من اختراعاتنا ، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلى الغلو والتنطع ، وعن السنة البيضاء إلى الإحداث والتبدع ، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي ، والتخيل الفلسفي ما أبعداها غاية البعد عن روح الإسلام ، وألقى بين أهلها بذور الشقاق والخصام ، وآل الحال بهم إلى الخروج من أقالم أغلالها ، والاقتصار على بقية رسومها للانتفاع منها ومعارضة هداية القرآن بها. وعرض القرآن علينا هذا الكون وعجائبه ، ونبهنا على ما فيه من عجائب الحكمة ومصادر النعمة لننظر ونبحث ونستفيد ونعمل ؛ فهجرنا ذلك كله إلى خريفة العجائب وبدائع الزهور والحوت والصخرة وقرون الثور! ، ودعانا القرآن إلى تدبره وتفهمه والتفكر في آياته ، ولا يتم ذلك إلا بتفسيره وتبيينه ؛ فأعرضنا عن ذلك وهجرنا تفسيره وتبيينه ، فترى الطالب يفني حصة كبيرة من عمره في العلوم الآلية دون أن يكون قد طالع ختمة واحدة في أصغر تفسير - كتفسير الجلالين مثلاً - بل ويصير مدرساً متصدراً ولم يفعل ذلك. وفي جامع الزيتونة - عمره الله تعالى - إذا حضر الطالب بعد تحصيل التطويح في درس تفسير فإنه - ويا للمصيبة! - يقع في خصومات لفظية بين الشيخ عبد الحكيم وأصحابه في القواعد التي كان يحسب أنه فرغ منها من قبل ؛ فيقضي في خصومة من الخصومات أياماً أو شهوراً ، فتنتهي السنة وهو لا يزال حيث ابتدأ أو ما تجاوزه إلا قليلاً دون أن يحصل على شيء من حقيقة التفسير ، وإنما قضى سنته في المماحكات بدعوى أنها تطبيقات

للقواعد على الآيات ، كأن التفسير إنما يُقرأ لأجل تطبيق القواعد الآلية لا لأجل فهم الشرائع والأحكام الإلهية. فهذا هجر آخر للقرآن مع أن أصحابه يحسبون أنفسهم أنهم في خدمة القرآن. وعلمنا القرآن أن النبي صلى الله عليه وسلم- هو المبين للناس ما نزل إليهم من ربهم ، وأن عليهم أن يأخذوا ما آتاهم وينهوا عما نهاهم عنه ، فكانت سنته العملية والقولية تالية للقرآن ؛ فهجرناها كما هجرناه وعاملناها بما عاملناه ، حتى إنه ليقَلَّ في المتصدرين للتدريس من كبار العلماء في أكبر المعاهد - مَنْ يكون قد ختم كتب الحديث المشهورة كالموطأ والبخاري ومسلم ونحوها مطالعة فضلاً عن غيرهم من أهل العلم وفضلاً عن غيرها من كتب السنة. وكم وكم وبين القرآن ، وكم وكم قابلناه بالصد والهجران!

بيان واستشهاد:

شر الهاجرين للقرآن هم الذين يضعون من عند أنفسهم ما يعارضونه به ويصرفون وجوه الناس إليهم وإلى ما وضعوه عنه ؛ لأنهم جمعوا بين صدهم وهجرهم في أنفسهم وصد غيرهم ؛ فكان شرهم متعدياً وبلاؤهم متجاوزاً وشر الشر وأعظم البلاء ما كان كذلك ، وفي هؤلاء جاء ما ذكره الإمام ابن القيم -في كتاب "إعلام الموقعين" - عن حماد بن سلمة ثنا أيوب السختياني عن أبي قلابة عن يزيد بن أبي عميرة عن معاذ بن جبل قال:

"تكون فتن ؛ فيكثر المال ويفتح القرآن حتى يقرأه الرجل والمرأة والصغير والكبير والمنافق والمؤمن فيقرؤه الرجل فلا يتبع ؛ فيقول والله لأقرأته علانية فلا يتبع فيتخذ مسجداً وبيتدع كلاماً ليس من كتاب الله ولا من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، فإياكم وإياه فإنه بدعة وضلالة".
قاله معاذ ثلاث مرات. اهـ.

فانظر في قطرنا وفي غير قطرنا ، كم تجد ممن بنى موضعاً للصلاة ووضع كتباً من عنده أو مما وضعه أسلافه من قبله وروجها بين أتباعه ، فأقبلوا عليها وهجروا القرآن وربما يكون بعضهم قصد بما وضع النفع فأخطأ وجهه، إذ لا نفع بما صرف عباد الله عن كتاب الله ، وإنما يُدعى الله بكتاب الله ، ولذلك سمي صنيع هذا الواضع بدعة وضلالة ، وحذر معاذ منه وأكد في التحذير بالتركيز. وهذا الحديث وإن كان موقوفاً على معاذ - فهو في حكم المرفوع ؛ لأنه إخبار بمغيب مستقبل ، وهذا ما كان يعلمه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم - إلا بتوقيف من النبي صلى الله عليه وسلم- وقد تحقق مضمونه في المسلمين منذ أزمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

سبيل النجاة:

لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه والعذاب المنوع الذي ندوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلى القرآن ، إلى علمه وهديه ، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه ، والتفقه فيه وفي السنة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحة الفهم والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين ، وهذا أمر قريب على من قرّبه الله عليه ، يسير على من توكل على الله فيه ، وقد بدت طلائعه - والحمد لله - وهي آخذة في الزيادة - إن شاء الله - وسبحان مَنْ يحيي العظام وهي رميم (١).

الهوامش :

(١) د. عمار الطالبي: ابن باديس.. حياته وأثاره ، ٤٠٦/١.

الوحدة والائتلاف.. ونبذ الفرقة والاختلاف

د. محمد محمد بدري

في الوقت الحاضر بدأت الصحوة الإسلامية في شتى أنحاء البلاد الإسلامية.. وفي طريق عودة الأمة إلى الله لا بد من معالم تبين لها طريق عودتها لتصبح بحق "أمة مسلمة" تستحق نصر الله ورضوانه...

ونحن نعتقد أن منهج أهل السنة والجماعة هو المنهج الصحيح الذي يجب أن تسير عليه الأمة ، ومنهج أهل السنة والجماعة هو الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم- والالتزام بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم- ، وشعارهم الحرص على جماعة المسلمين ووحدة كلمتهم.

وإن من أعظم ما أصاب المسيرة الإسلامية الفرقة والتنازع والاختلاف ؛ فساحة العمل الإسلامي تغص بجماعات كثيرة واحدة ، دعواها واحدة وهي الإسلام وإعادة مجد الإسلام وأمة الإسلام ، ولكنها متنافرة فيما بينها ، تتراشق الاتهام... بل يصل الأمر إلى الرمي بالمروق من الدين والاتهام بالضلال وهذا هو الخلاف المذموم الناشئ عن الهوى والتعصب لرجل أو جماعة بدون تعرف على الحق وتبين له.

والفرقة دائماً بلاء يفسد كل صالح من الأعمال ويقطع عنه أكثر نتائجه، فكيف إذا تحولت الفرقة إلى تدابر؟!!

إننا جميعاً يجب أن نتعلم أن اختلافنا مع الآخرين لا يعني فقدانهم مقومات العمل الإسلامي وخروجهم من دائرة المصلحة إلى دائرة المفسدة ، كما أن هذا الخلاف لا يجب أن يعميّننا عن إيجابيات الآخرين.

بل يجب علينا الاستفادة من تجارب الآخرين وأن نتعلم كيف نمد معهم جسور المودة والمحبة ونشاور منهم أهل العلم والخبرة فنكون وكأنما جمعنا علمهم إلى علمنا ، وعقلهم إلى عقلنا. ونحاول إيجاد صيغة للالتقاء والانسجام بين تجمعات أهل السنة والجماعة العاملة في الساحة الإسلامية بحيث تمضي القافلة المسلمة في طريق واحد نحو هدفها.

قد يقول البعض إن الاختلاف والتفرق أمر قدرني كوني أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم- في قوله: "تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، أو اثنتين وسبعين فرقة ، والنصارى على مثل ذلك ، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة" وإذن فلا فائدة من العمل على الائتلاف والوحدة!.. ونحن هنا نشير إلى أمر مهم يجب أن يفهمه المسلم وهو التمييز بين الأمر الشرعي والأمر القدرني الكوني ، أو بين ما هو مطلوب منا وما هو واقع بنا فالمطلوب منا هو العمل على الائتلاف وما هو واقع بنا هو أن الفرقة والاختلاف واقعان لا محالة ، فإذا قمنا بما هو مطلوب منا فسيؤدي ذلك - بإذن الله - إلى تكثير الفرقة الناجية التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم-: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

وكما قال ابن تيمية - رحمه الله -:

"لا يقال: فإذا كان الكتاب والسنة دلا على وقوع ذلك فما فائدة النهي عنه؟!؛ لأن الكتاب والسنة قد دلا على أنه لا يزال طائفة في هذه الأمة متمسكة بالحق إلى قيام الساعة وأنها لا تجتمع على ضلالة ، ففي النهي عن ذلك تكثير لهذه الطائفة المنصورة ، نسأل الله المجيب أن يجعلنا منها" (اقتضاء الصراط المستقيم).

ولابد أن نعلم أن هويتنا الحقيقية هي أننا عبيد مملوكون لله ، بيده وحده تقلباتنا ، وإليه وحده مصيرنا، وله حياتنا ومعادنا.

ونحن نظن أن حضور هذا البعد الإيماني هو الضمانة الحقيقية لشرعية علاقتنا ، والملاذ الأخير لتصفية خلافاتنا ، ونزع أغلال قلوبنا. فلنحاول إذا اكتسبنا معرفة وعلماً ألا نفتقد خلق هذه المعرفة ، فلا يصح أن نمتلك الوسيلة ونضيع الهدف والغاية.

فالعلم إنما يراد لتقع الأعمال في الواقع على وفقه ، والعلم يقول لنا: عليكم بالوحدة ونبذ الفرقة ؛ قال - عز وجل - : ((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)) [آل عمران: ١٠٣] وذكرنا - عز وجل - بالحال التي كنا عليها قبل الإسلام ، حين كان الناس قبائل متناحرة يعادي بعضها بعضاً ؛ فجاء الإسلام فأصبحوا إخوة أحبة: ((وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا)) [آل عمران: ١٠٣] ، ونهانا - عز وجل - أن نسلك مسلك الأمم من قبلنا وهو التنازع والاختلاف: ((وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) [آل عمران: ١٠٥] ، وأخبر - سبحانه - أن التنازع والخلاف يؤدي إلى الفشل وذهاب قوة الأمة: ((وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)) [الأنفال: ٤٦].

وحيثما تريد الحركة الإسلامية أن تقف على قدميها فلا بد أن تكون فصائلها متحالفة مترابطة ، والوحدة التي نريدها هي وحدة الطاقات ؛ فالبعض يملك القوة العددية والبعض يملك الكوادر والطرف الثالث يملك المال وآخر يملك طاقة أخرى وهكذا يمكن أن تتكامل هذه الطاقات وتتعاون في سبيل هدفنا الواحد.

إننا لا نرمي من وراء دعوتنا إلى الوحدة بين فصائل الحركة أن يتنازل رؤوس الفصائل الإسلامية في الحركة عن أفكارهم الشخصية مادامت معتقدات يشهد لها الشرع بالقبول ، ولا نطلب منهم أن يتخلوا عن مواقفهم ، بل نطلب منهم أن يتقدموا بمجهوداتهم ويساهموا بطاقتهم في الحركة الإسلامية بحيث ينتظم عمل الجميع إطار واحد متكامل الأجزاء للانطلاق إلى الهدف المنشود من عودة هذه الأمة وإحيائها بالتوحيد وبعثها لتقود هذه البشرية من جديد.

نقول للجميع إننا نعمل من أجل دعوة واحدة ونسعى إلى هدف واحد ، ونرتبط بمصير واحد ؛ فعلياً أن نعمل في اتجاه واحد وفق منهج واضح ، وأن نتعاون على البر والتقوى ولا نتنازع فيما بيننا فنفسل ونضعف وتضيع الأهداف التي ننشدها ، وفقنا الله وإياكم إلى ما يحب ويرضى.

قضايا فقهية

- ١ -

مدى تدخل الدولة

في فرض الضرائب وتوظيف الأموال

عثمان جمعة ضميرية

مع اتساع سلطات الدولة في العصر الحديث ، وتغير بعض الظروف ، وتجدد الحوادث والوقائع ، نجد من الواجب دراسة بعض المسائل التي تتصل بحياة الناس وواقعهم لبيان حكم الإسلام فيها ، ومن ذلك ما نجده من تدخل الدولة في ملكيات الأفراد الخاصة بفرض ضرائب متنوعة وتوظيف الأموال على القادرين من أفراد المجتمع. فما هو حكم الإسلام في ذلك؟ وما مدى مشروعيته؟.. هذا ما سنعالجه في هذا المقال معالجة موجزة مركزة تتفق مع طبيعة المجلة - بإذن الله تعالى.

تعريف الضريبة:

الضريبة عند علماء المالية هي: فريضة إلزامية ، يلتزم الفرد بأدائها إلى الدولة تبعاً لمقدرته على الدفع ، بغض النظر عن المنافع التي تعود عليه من وراء الخدمات التي تؤديها السلطات العامة ، وتستخدم حصيلتها في تغطية النفقات العامة (١).

حماية الملكية:

والأصل العام والقاعدة المقررة في الشريعة الإسلامية: أن المسلم إذا ما التزم بدفع الواجبات المالية التي تتعلق بملكية المال الذي بيده ، فإنه لا يجوز بعد ذلك التعرض لما في يده من أموال دون حق ، إلا إذا اقتضت ذلك الضرورة والمصلحة ضمن القواعد الشرعية المقررة ؛ لذلك رأينا كثيراً من النصوص الشرعية تتوارد منددة بالمكوس وأخذ الأموال دون حق ، ومن ذلك ما جاء عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "لا يدخل الجنة صاحب مكس" (٢) ، وعن عبد الله بن عمرو قال: "إن صاحب المكس لا يُسأل عن شيء ، يؤخذ كما هو ، فيرمى به في نار جهنم" (٣).

* وكتب عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - إلى عدي بن أرطاة أن: "ضع الفدية ، وضع عن الناس المائدة ، وضع عن الناس المكس ، وليس بالمكس ، ولكنه البخس الذي قال الله - تعالى -: ((وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)) [هود: ٨٥] ، فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه ، ومن لم يأتك بها فإلله حسبيه".

* وكتب أيضاً إلى عبد الله بن عوف القاري أن: "اركب إلى البيت الذي برفح ، الذي يقال له: بيت المكس ، فاهدمه ، ثم احمه إلى البور فانسفه فيه نسفاً" (٤).

* ولهذا قال الإمام أبو يوسف القاضي - رحمه الله -: "ليس للإمام أن يخرج شيئاً من يد أحد إلا بحق ثابت معروف" (٥) ، وقال: "وكل من أقطعه الولاية المهديون أرضاً من أرض السواد وأرض العرب والجال ، من الأصناف التي للإمام أن يقطع منها - فلا يحل لمن يأتي بعدهم من الخلفاء أن يرد ذلك ، ولا يخرج من يد من هو في يده ، وارثاً أو مشترياً ، فأما إن أخذ الوالي من يد واحد وأقطعهما آخر فهذا بمنزلة الغاصب ؛ غصب واحداً وأعطى آخر ، فلا يحل للإمام ، ولا يسعه أن يقطع من الناس حق مسلم ولا معاهد ، ولا يخرج من يده من ذلك شيئاً إلا بحق يجب له عليه ، فيأخذه بذلك الذي يجب له عليه.. والأرض عندي بمنزلة المال" (٦).

الآثار الاقتصادية للضرائب:

وعقد العلامة الاجتماعي ابن خلدون فصلاً في مقدمته المشهورة بعنوان "في ضرب المكوس وأواخر الدولة" بيّن فيه الأسباب التي تدعو الدولة لفرض المكوس على الرعية ، وآثار ذلك على

النشاط الاقتصادي ، وعلى الدولة ، حيث تكسد الأسواق لفساد الآمال ، ويؤذن ذلك باختلال العمران ، ويعود على الدولة - ولا يزال يتزايد - إلى أن تضمحل (٧).

ثم عقد فصلاً آخر "في أن الظلم مؤذن بخراب العمران" ؛ فقال فيه:

"ولا تحسبن الظلم إنما هو أخذ المال أو الملك من يد مالكة من غير عوض ولا سبب - كما هو المشهور - بل هو أعم من ذلك ، وكل من أخذ ملك أحد أو غصبه في عمله ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه المشرع فقد ظلمه.. فلما كان الظلم مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى إليه من تخريب العمران كانت حكمة الحظر (المنع) فيه موجودة ، فكان تحريمه مهماً ، وأدلته من القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرة ، أكثر من أن يأخذها قانون الضبط والحصر... (٨).

الحكم يدور مع علته:

هذا الذي تقدم يبين لنا أنه من الظلم المحرم العدوان على ملكيات الناس وأموالهم بغير حق ثابت ؛ ولهذا جاءت النصوص الشرعية بتحريمه ، وتبين أن هذا الحكم بالتحريم معلل بأنه ظلم وعدوان ، وهو ما دفع ابن خلدون وغيره إلى القول بعدم جواز أخذ شيء من المال ، وهو ما أقرته الشريعة الإسلامية ، لكن إذا زالت العلة ، فلم يعد الأخذ بغير حق ، وإنما هو أمر تستوجبه المصلحة العامة ، وتضبطه القواعد الشرعية المقررة - فهل يكون هذا الأخذ أو التوظيف للأموال حراماً؟.

نصوص فقهية:

عرض فقهاء الشريعة الإسلامية توظيف الأموال على الأغنياء - عند الحاجة - وقرروا جواز ذلك ، وفيما يلي نصوص عن بعض الأئمة الفقهاء:

* رأي الغزالي: قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: "إذا خلت أيدي الجنود من الأموال ، ولم يكن من مال المصالح ما يفي بخراجات العسكر ، ولو تفرق العسكر واشتغلوا بالكسب لخياف دخول العدو بلاد الإسلام ، أو خيف ثوران الفتنة من أهل العرامة في بلاد الإسلام - فيجوز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند ؛ لأننا نعلم أنه: إذا تعارض شران أو ضرران قصد الشرع دفع أشد الضررين وأعظم الشرين ، وما يؤديه كل واحد منهم قليل بالإضافة إلى ما يخاطر به من نفسه وماله لو خلت خطة الإسلام من ذي شوكة ، يحفظ نظام الأمور ويقطع مادة الشرور. ومما يشهد لهذا: أن لولي الطفل عمارة القنوات ، وإخراج أجرة الطبيب وثمان الأدوية ، وكل ذلك تنجز لتوقع ما هو أكثر منه" (٩).

* رأي الجويني: وقد نص على ذلك أيضاً إمام الحرمين الجويني ، وهو شيخ الغزالي ، في كتابه "الغياثي" ، فقال: "إذا صفت يد راعي الرعية عن الأموال ، لحاجات ماسة ، فلا يخلو الحال من ثلاثة أنحاء:

الأول: أن يطاء الكفار ديار الإسلام - والعياذ بالله - فقد اتفق حملة الشريعة قاطعة على أنه يتعين على المسلمين أن يخفوا إلى مدافعهم زرافات ووحداناً.. وإذا كان هذا دين الأمة ومذهب الأئمة، فأبي مقدار للأموال في هجوم أمثال هذه الأهوال، لو مست إليها الحاجة؟! وأموال الدنيا لو قوبلت بقطرة دم لم تعدلها ، ولم توازنها ، فيجب على الأغنياء في هذا القسم أن يبذلوا فضلات أموالهم ، حتى تنجلي هذه الداهية ، وتنكف الفنة المارقة الطاغية.

والثاني: أن لا يطاء الكفار ديار الإسلام ، ولكننا نحاذر ذلك ونستشعره ، لانقطاع موارد الأموال واختلال الأحوال ، فلا يحل تأخير النظر للإسلام والمسلمين إلى اتفاق استجراء الكافرين ، والدفع

أهون من الرفع ، وأموال العالمين لا تقابل غائلة وطأة الكفار قرية من قرى المسلمين ، فليلحق هذا القسم بما تقدم.

وأما القسم الثالث: وهو أن لا نخاف من الكفار هجوماً ، لا خصوصاً في بعض الأقطار ، ولا عموماً ، لكن الانتهاض للغزو والجهاد يقتضي مزيد عتاد واستعداد ، فللإمام أن يكلف الأغنياء من فضلات الأموال ما تحصل به الكفاية والغناء ، فإن إقامة الجهاد فرض على العباد". ثم يضع إمام الحرمين ضوابط لهذا التدخل فيقول:

"ليس للإمام في شيء من مجاري الأحكام أن يتهجم ويتحكم ، فعل من يتشهى ويتمنى ، ولكنه يبني أموره كلها على وجه الرأي والصواب ، في كل باب ، والأمر في أخذ الأموال يجري على هذه الأحوال. فليشر على أغنياء كل صقع بأن يبذلوا من المال ما يقع به الاستقلال. فإذا عسر التبليغ إلى الاستيعاب ، ورأى في وجه الصواب أن يخصص أقواماً ، ثم يجعل الناس في ذل كفئات ، فيستأدي عند كل ملمة من فرقة أخرى وأمة - اتبع في ذلك كله أو امره - واجتنب زواجره. ثم ليكن في ذلك على أكمل نظر ، وأسد فكر وعبر... فإذا اقتضى الرأي تعيين أقوام على التنصيب تعرض لهم على التخصيص ، ونظر إلى من كثر ماله وقل عياله ، وقد يتخير من خيف عليه من كثرة ماله أن يطغى ، ولو ترك لفسد ، ولو غرض من غلوائه قليلاً لأوشك أن يقتصد" (١٠).

* رأي الشاطبي: وقال الإمام الشاطبي - رحمه الله - في كتابه النفيس "الاعتصام": "إذا قررنا إماماً مطاعاً مفتقراً إلى تكثير الجنود لسد حاجات الثغور وحماية الملك المتسع الأقطار ، وخلا بيت المال ، وارتفعت حاجات الجند إلى مالا يكفيهم ، فللإمام - إذا كان عدلاً - أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال إلى أن يظهر مال بيت مال المسلمين ، ثم إليه ينظر في توظيف ذلك على الغلات والثمار وغير ذلك ، كيلا يؤدي تخصيص الناس به إلى إحاش القلوب ، وذلك يقع قليلاً من كثير - بحيث لا يجحف بأحد - ويحصل المقصود.

وإنما لم ينقل مثل هذا عن الأولين ؛ لاتساع مال بيت المال في زمانهم ، بخلاف زماننا (زمان الشاطبي)؛ فإن القضية فيه أخرى ، ووجه المصلحة هنا ظاهر ، فإنه لو لم يفعل الإمام ذلك النظام لبطلت شوكة الإمام ، وصارت ديارنا عرضة لاستيلاء الكفار.

وإنما نظام ذلك كله شوكة الإمام مع عدله ، فالذين يحذرون من الدواهي لو تنقطع عنهم الشوكة - يستحقرون بالإضافة إليها أموالهم كلها - فضلاً عن اليسير منها ، فإذا عورض هذا الضرر العظيم بالضرر اللاحق لهم بأخذ بعض أموالهم ، فلا يتمارى في ترجيح الثاني على الأول ، وهو مما يعلم من مقصود الشرع قبل النظر في الشواهد".

ثم قال: "والملاءمة الأخرى أن الأب في طفله أو الوصي في يتيمة ، أو الكافل فيمن يكفله مأمور برعاية الأصلح له ، وهو يصرف ماله إلى وجوه من النفقات أو المؤن المحتاج إليها ، وكل ما يراه سبباً لزيادة ماله - مال الطفل أو القاصر - أو حراسته من التلف جاز له بذل المال في تحصيله. ومصلحة الإسلام عامة لا تتقاصر عن مصلحة طفل ، ولا نظر إمام المسلمين يتقاعد عن نظر واحد من الأحاد في حق محجوره.

فهذه ملاءمة صحيحة ، إلا أنها في محل ضرورة ، فتقدر بقدرها ، فلا يصح هذا الحكم إلا مع وجودها... وهذه المسألة نص عليها الغزالي في مواضع من كتبه ، وتلاه في تصحيحها ابن العربي في أحكام القرآن. وشرط جواز ذلك كله عندهم عدالة الإمام ، وإيقاع التصرف في أخذ المال وإعطائه على الوجه المشروع" (١١).

* رأي ابن حزم: وممن عرض لهذه المسألة ، وأيدها بالنصوص الشرعية والحجج القوية الإمام ابن حزم في كتابه العظيم "المحلّي" ، فقال: "وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك ، إن لم تقم الزكوات بهم ، ولا في سائر أموال المسلمين ما يقوم بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة.

برهان ذلك: قول الله - تعالى - : ((وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمَسْكِينِ وَالْإِسْرَاءَ: ٢٦)) ، وقال - تعالى - : ((وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)) [النساء: ٣٦] ، فأوجب تعالى حق المساكين وابن السبيل وما ملكت اليمين مع حق ذي القربى ، وافترض الإحسان إلى الأبوين وذي القربى والمساكين والجار وما ملكت اليمين ، والإحسان يقتضي كل ما ذكرنا ، ومنعه إساءة بلا شك.

وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : "من لا يرحم الناس لا يرحمه الله" (١٢). قال أبو محمد (ابن حزم): ومن كان على فضلة ورأى أخاه المسلم جائعاً عريان ضائعاً فلم يُغثه فما رحمه بلا شك.. وقد قال - صلى الله عليه وسلم - : "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه.."(١٣) ، ومن تركه يجوع ويعرى - وهو قادر على إطعامه - فقد أسلمه.

والنصوص من القرآن ، والأحاديث الصحاح في هذا تكثر جداً" (١٤). ويذهب ابن حزم إلى أن المسلم لا يعتبر مضطراً لأكل لحم الميتة أو الخنزير

وهو يجد طعاماً فاضلاً عن حاجة أخيه، وله أن يقاتل للحصول على هذا الفضل ، فيقول: "ولا يحل لمسلم اضطر أن يأكل لحم خنزير أو ميتة وهو يجد طعاماً فيه فضل عن صاحبه لمسلم أو لذمي ؛ لأن فرضاً على صاحب الطعام إطعام الجائع فإذا كان ذلك فليس بمضطر إلى الميتة ولا إلى الخنزير".

"وله أن يقاتل عن ذلك ، فإن قُتل فعلى قاتله القود ، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله ؛ لأنه منع حقاً ، وهو طائفة باغية ؛ قال - تعالى - : ((فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ)) [الحجرات: ٩] ، وما منع الحق باغٍ على أخيه الذي له الحق ، وبهذا قاتل أبو بكر الصديق مانع الزكاة" (١٥).

شبهة مردودة:

وعلى هذا لا يحتج على منع توظيف الأموال بما رواه ابن ماجه عن فاطمة بنت قيس أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "ليس في المال حق سوى الزكاة" (١٦) ؛ لأنه قد ثبت أن هناك حقوقاً أخرى في المال سوى الزكاة، منها: النفقات على الأبوين المحتاجين ، وعلى الزوجة وعلى الرقيق وعلى الحيوان ، ومنها الديون والأروش (ديات الأعضاء) ، وفكاك الأسير ، وإطعام المضطر ؛ فإن هذا قام الإجماع على وجوبه.

والحديث أيضاً معارض بما رواه الترمذي: «إن في المال حقاً سوى الزكاة» ، ويمكن القول بأنه ليس في المال حق سوى الزكاة بطريق الأصالة ، وقد يعرض ما يوجب فيه حقاً كوجود مضطر ، فلا تناقض بينه وبين الخبر السابق ؛ لما تقرر من أن ذلك ناظر إلى الأصل ، وهذا ناظر إلى ما قد يطرأ فيوجب حقاً جديداً (١٧).

بين الزكاة والضريبة:

وبناءً على هذه النصوص أجاز الفقهاء المحدثون فرض ضرائب جديدة عند الحاجة إلى ذلك ، فقد سئل الشيخ أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - : ما هي وسائل الدخل للحكومة الإسلامية ، والمعروف عامة أنه لا ضريبة في الإسلام إلا الزكاة والجزية والخراج؟ . فقال: "من الخطأ القول: إنه لا يجوز في الإسلام أن تفرض ضريبة لسد نفقات الحكومة ، وكذلك لا يصح أن يقال: إن الزكاة هي ضريبة توضع على الناس لتسد بها نفقات الحكومة ، إنما الزكاة مال من أموال التأمين الاجتماعي. يؤخذ من الأغنياء ليرد إلى من يستحق من الفقراء. أما حاجات الحكومة فما هي إلا حاجات الجمهور أنفسهم ، فكل ما يطالبون به الحكومة من واجبهم أن يكتتبوا لها من الأموال ما تحقق به مطالبهم" (١٨).

"فلا بد من العناية بفرض ضرائب اجتماعية على النظام التصاعدي - بحسب المال لا بحسب الربح - يعطى منها الفقراء طبعاً ، وتجبى من الأغنياء الموسرين ، وتتفق في رفع مستوى المعيشة بكل الوسائل المستطاعة. ومن لطائف عمر - رضي الله عنه - أنه كان يفرض الضرائب الثقيلة على

العنب ؛ لأنه فاكهة الأغنياء في ذلك الوقت ، والضريبة التي لا تُذكر على التمر ؛ لأنه طعام الفقراء ، فكان أول من لاحظ هذا المعنى في الحكام والأمراء - رضي الله عنه" (١٩).

الشروط والضوابط:

وبذلك تحدد لنا المجال الذي تعمل فيه هذه النصوص السابقة ، ومدى مشروعيتها هذه الفرائض أو الضرائب ، إلا أن ذلك ليس موكولاً إلى هوى الحكام وشهواتهم ، ليفرضوا على الرعية ما تنوء به الكواهل من الواجبات التي تدخل إلى خزائن المترفين منهم والمترهلين باسم المصلحة العامة ، كما أنه لا يجوز فرض هذه الضرائب والخزينة في غنى عنها ؛ لذلك وضع العلماء شروطاً لا بد من توافرها حتى يصح القول بمشروعية هذه الضرائب ، ومن هذه الشروط:

١- أن تكون هذه الضرائب أمراً استثنائياً تدعو إليه المصلحة العامة للمجتمع ، وتدبيراً مؤقتاً ، حسبما تدعو إليه الضرورة التي تقدر بقدرها ، ينتهي ويزول بزوال العلة والحاجة.

٢- أن يكون الحاكم الذي يفرض هذه الضرائب عادلاً ، تجب طاعته ، ليكون في هذا ضمان لعدم الظلم والعسف ، ولتحقيق العدل.

٣- أن لا يكون هناك في بيت المال والخزينة العامة ما يكفي لسد هذه الحاجات ، ولا ينتظر أو يرجى أن يكون شيء من ذلك ، نظراً للظروف الطارئة ، وأن يرد الحاكم وحاشيته ما عندهم من أموال فائضة إلى بيت مال المسلمين.

٤- أن يقع التصرف في جباية المال وإنفاقه على الوجه المشروع.

٥- كما يشترط أن تكون أحكام الشرع في تلك الحال نافذة كما يجب ، وحدوده مقامة كما يرضى ، وأن تكون الوظائف في جهاز الحكم بقدر الحاجة ، لا تزيد عليها (٢٠).

هذا ما يسر الله - تعالى - كتابته في هذا الموضوع الذي يتساءل الناس عن الحكم فيه وللتفصيل والوقائع مجال آخر قد لا يتحملة مقال عاجل أو مجلة ثقافية عامة. والله الموفق.

الهوامش :

١ - انظر: الملكية في الشريعة الإسلامية ، د. عبد السلام العبادي: ٢/٢٨٥ ، والمرجع المشار إليه هناك.

- ٢- أخرج أبو داود في كتاب الإمارة ، ١٩٧/٤ (مختصر المنذري) ، والدارمي في الزكاة: ٣٩٣/١ وصححه الحاكم في المستدرک: ٤٠٤/١ ووافقه الذهبي ، وأخرجه ابن خزيمة ، ٥١/٤ ؟ والإمام أحمد ، ١٤٣/٤ ؟ قال الخطابي: "صاحب المكس هو الذي يعشّر أموال المسلمين ويأخذ من التجار إذا مروا عليه وعبروا به مكساً باسم العشر ، وليس هو بالساعي الذي يأخذ الصدقات. وأصل المكس: النقص.
- ٣ ، ٤ - أخرج أبو عبيد في الأموال ، ٧٠٣-٧٠٤ ،
- ٥ - الخراج لأبي يوسف ، ٧١ ؟ وانظر: الأشباه والنظائر ، لابن نجيم ، ١٢٤ ،
- ٦ - الخراج لأبي يوسف ، ٦٦ ،
- ٧ - مقدمة ابن خلدون ، ٢٨٠-٢٨١ ،
- ٨ - المصدر نفسه ، وانظر الفصل بكامله ، ٢٨٦-٢٩٠ ،
- ٩ - انظر: المستصفي من علم الأصول للغزالي ٢ / ٣٠٤-٣٠٥ ، مطبوع مع مسلم الثبوت.
- ١٠ - انظر: الغياثي للجويني ، ٢٥٦-٢٧٣ بتحقيق د. عبد العظيم الديب ، طبعة قطر.
- ١١ - الاعتصام للإمام الشاطبي ، ٢ / ١٢١-١٢٣ ،
- ١٢ - أخرج البخاري في التوحيد ، ٣٨٥/١٣ (فتح الباري) ، ومسلم في الفضائل ، ١٨٠٨/٤ - ١٨٠٩ ،
- ١٣ - قطعة من حديث أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ، ١٩٨٦/٤ ،
- ١٤ - المحلى لابن حزم ، ٢٢٤-٢٢٧ وانظر بحث الدكتور إبراهيم اللبان في مجمع البحوث الإسلامية ، ٢٤٨/١ وما بعدها.
- ١٥ - المحلى ، ٣٣٠/٦ ،
- ١٦ - أخرج ابن ماجه في الزكاة ، ٥٧٠/١ . قال النووي: ضعيف جداً. وقال ابن القطان: فيه أبو حمزة (ميمون الأعور): ضعيف. انظر: فيض القدير للمناوي ، ٣٧٥/٥ ،
- ١٧ - انظر: الملكية في الشريعة ومدى تدخل الدولة في تقييدها لعثمان جمعة ضميرية ، ٢١٨-٢٢٠ .
- ١٨ - نظرية الإسلام وهدية في السياسة والقانون للمودودي ، ٣١٢-٣١٣ ،
- ١٩ - مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ، ص ٤٠٥ ،
- ٢٠ - انظر بالتفصيل هذه الشروط والوقائع التاريخية ونصوص العلماء في: الغياثي للجويني ، (٢٧٠) وما بعدها ، والاعتصام للشاطبي ، ١٢٣/٢ واشتراكية الإسلام للدكتور مصطفى السباعي ، ١٢٣-١٢٦ ونظرات في كتاب اشتراكية الإسلام للشيخ محمد الحامد ١٢٤-١٢٥ ، والملكية في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد السلام العبادي ، ٢٩٤-٢٩٩ وخطوط رئيسية في الاقتصاد للأستاذ محمود أبو السعود ، ٤٦ والثروة في ظل الإسلام للبهني الخولي / ٢٢٤ .

دعاة من جدتنا

أحمد محمد الفضيل

أنزل الله الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى وفرقاناً ورحمة لقوم يوقنون ، وأرسل رسوله بالهدى ودين الحق ؛ ففتح به أعينا عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وبدد بدعوته ظلمات الجهل والحماسة ، وأسقط الأغلال التي كانت على العقول ، حتى أمسى شرك الجاهلية وضلالها

أسطورة غابرة ، وأضحت عبادة الأصنام في ميزان المسلم إفاً قديماً ، ويعجب المسلم - فيما يعجب - من سخف المشركين من قولهم في تلبيتهم: "لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك!" (١).

سبحان ربي! ، كيف سوغ الشيطان هذا السخف لأوليائه ، وزين لهم ما كانوا يفترون ؛ وصدق الله ((مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّمْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً)) [الكهف: ١٧].

غير أنه يجب أن نذكر دائماً أن الابتلاء مستمر ، ومادة الشر باقية ، وشياطين الإنس والجن مشمرون في ترويج الضلال ، حتى زخرفوه بكل حلة ، وروجوا له بكل لسان: ((وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً)) [الأنعام: ١١٢]. ومن الواجب كذلك أن نتبع طرق الغي بالتحذير منها ، وكشف مراميها وأبعادها وسد السبل على دعائها ؛ حتى يكون المسلمون على بينة من ربهم ، وبصيرة من سبيلهم ، ولا يضرهم انتحال المبطلين ، أو كيد الحاقدين.

ولقد شاعت في دنيا المسلمين فلسفات وأنظمة ؛ خدعت الكثير منا ببريقها ، وانتشرت شعارات ومصطلحات أسرت العقول ، واستحوذت على الأفكار ، ووراء ذلك كله داء دوي ، ونار - لو قدر لها أن تنتشر - لم تأت على شيء إلا جعلته كالريم. وكان المسلمون قبلها يتلون كتاب الله ، ويتدبرون آياته ، ولا يخالج أحداً منهم شك في حق التشريع ولا ريب ؛ فالتشريع كله - الحلال والحرام والسياسة ونظم المجتمع - كله لله، حقاً خالصاً من أخص خصائص الألوهية ، كما أن الإقرار به أول طريق العبودية ، وكان المسلمون يعلمون كذلك أن كل سلطان أو إمارة في دولتهم إنما يكتسب المشروعية ، ويأخذ حق الطاعة من الله - سبحانه - فلا سلطان ولا طاعة ولا ولاء إلا لله وأمر الله ودين الله ، وكل سلطة من غير هذا السبيل فإنما هي خروج عن التوحيد: ((اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً واحداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)) [التوبة: ٣١].

وما كان اتخاذهم أرباباً ، ولا كانت عبادتهم إلا طاعتهم في تحريم ما أحل الله ، وتحليل ما حرم الله: ((أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً)) [النساء: ٦٠]. وأعظم الناس منزلة عند الله أنبيأؤه ورسله ، إنما بلغوا هذه المنزلة السامية بتمام عبوديتهم ، وكمال خضوعهم لله: ((وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلِداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)) [الأنبياء: ٢٥-٢٧].

والنبي بريء من كل دعوى تخالف عبوديته ، كما في قول عيسى - روح الله وكلمته - لربه: ((مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ)) [المائدة: ١١٧].

إذن فالأمة كلها - حاكماً ومحكوماً وأميراً ومأموراً ، وبشتى طبقاتها - ليست إلا مخلوقة لله ، مربية مستعبدة ، والأمر كله لله: ((وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً)) [البينة: ٥].

ثم تسرب إلينا الفكر الصليبي اللاديني (٢) ، حاملاً معه خفيات المعركة التي استعرت في أوربا بين كنيسة ضالة خانت الأمانة ، وسخرت تعاليم السماء لأحط غرائز الأرض ، وبين الشعب الذي لم ير في هذه الكنيسة سوى عقبة تحول دون انطلاقه وتحرره ، وتسومه سوء العذاب، ودخل عالم المسلمين تعبيرات جديدة: سيادة الأمة، حكم الشعب للشعب، الشعب مصدر السلطات ، الدين لله والوطن للجميع ، وتضاربت الأقوال حول هذه المستجدات المصدرة ، وتباينت كذلك المواقف

، ووقف رجال لم تخنهم البصيرة ، ولم ينقصهم الإخلاص وسط هذه الزلزلة ، وجهروا بالحق لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، بينما تحرك الكثيرون ممن كانوا يحتلون مواقف القيادة الفكرية ؛ لينخرطوا في اللعبة الجديدة ، ودون أن يتفوهوا بكلمة واحدة. ولم يكدر رواد العلمانية (اللا دينية) ودعاتها يطلقون الطلقة الإعلامية الأولى ضد الدولة الدينية ، والحكومة الدينية ، والحرب الدينية ؛ حتى تحمس الكثير من الكتاب ، لا ليدفعوا عن أنفسهم الصبغة الدينية ، بل ليقرروا للناس أن. الإسلام برىء من كل دولة دينية وحكومة دينية ، ومن كل ما هاجمه اللادينيون أو وصموه!

وخرج من صفوف المسلمين بعد ذلك أناس حملهم الإخلاص وحفزتهم الغيرة ، يدعون المسلمين للخروج من الأساليب التقليدية ، والتحرر من القوقعة والجمود ، وطلب هؤلاء من المسلمين أن يحافظوا على النظام الديمقراطي العلماني مادام يكفل لهم حرية الدعوة والحركة ، بل رأوا أن من الواجب أن يساهم المسلمون في إقامة هذا النظام إذا لم يكن قائماً ، وكان ذلك من دعاة غيورين ، يتألمون لتقصير المسلمين ، مع أنهم يعلمون أن حرية الأنظمة اللادينية إنما هي حرية مقننة مبرمجة ، وأن الكل متفق على وجوب اتباع سياسة القهر والإذلال للدعاة، والوقوف في سبيل الدعوة، ولكن في الوقت المناسب، والشكل المناسب!!!

لقد ثارت أوروبا لتدفع اضطهاد الذين حكموها باسم الله، وزعموا للشعب أنهم ظل الله، وسلطانه على الأرض. وحمل الإنسان الأوربي في أعماق شعوره حساسية مدمرة ضد كل ما هو ديني ، أو يمُت للدين. ثم انتقلت عدوى هذه الحساسية المدمرة إلى حس رواد وأتباع اللادين في عالمنا! وإنما يهمننا في الدرجة الأولى أن يستيقظ المسلم المخدوع بهذه الشعارات، والمنوم ببريقها، نريد أن يعلم المسلم حقيقة التناقض العقدي بين التوحيد الذي يحمله في قلبه - ثم لا يمنعه ذلك أن يسير خطوات بعيدة في سبيل غير سبيله - وبين الفلسفة الكافرة التي أنشأها وصنعتها ، ونحن مع الذين يستنكرون الاستغلال بكل أنواعه في استنكارهم دون أن يكون هذا الاستنكار وسيلة تحمل المسلم على التخلي عن إيمانه.

وأما الدساتير التي صُدّرت إلينا فهي نسخة عن دساتير أوروبا التي تقول: "دع ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله" ، قد يضاف إلى بعض الدساتير عبارة تناسب عواطف الشعوب المسلمة ، حيث يقال لها إن الإسلام دين الدولة ، أو أن الشريعة مصدر القوانين.

وستجد من يوضح لك أن الشعب مصدر السلطات التي ليس فيها حكم شرعي ، فسلطانه خارج دائرة سلطة الشريعة!! ، ومع أن كلمة (الشعب) تتسع لتشمل كل النوعيات الهابطة والرفيعة ، من ذوي الاختصاص والعلم ، وأهل الرعونة والطيش ؛ فإنك تجد في نص الدستور أن من حق الأغلبية تغيير مواد الدستور ، من خلال القنوات الرسمية ؛ باعتبار الأغلبية تمثل رأي الشعب ، إذن فعندما يقرر الشعب نظرياً - أو الذين يحكمون باسم الشعب - أن يغيروا المظاهر الإسلامية في الدستور يكون هذا التغيير دستورياً وصحيحاً ، ولا معنى للاعتراض عليه. وإذا لاحظنا أن عبارة (الإسلام دين الدولة) عبارة طارئة على النظام اللاديني (الديموقراطي) ودخيلة عليه ، ومتناقضة معه ، وأن المعاني التي تحملها هي أقل مواد الدستور قوة وتأثيراً ودواماً ، بينما اعتبار الشعب مصدراً للسلطات ، إنما هو جوهر الديموقراطية - علمنا من ذلك أن اعتبار الإسلام ديناً للدولة لم يأت استمداداً من أمر الله وسلطانه ، بل هو مستند إلى سلطان الشعب ورأيه ؛ وبذلك يجعلون سلطان الله - تعالى - محكوماً بسلطان الشعب ومستمداً منه ، وبينما كانت تلبية الجاهلية تضع سلطة أصنامها - نظرياً - دون سلطة الله ؛ إذا بالجاهلية الصليبية الحديثة

تريد أن تخادعنا عن ديننا ، وتقودنا إلى جاهلية أشد ضللاً وانتكاساً من الجاهلية البائدة ، فهل ينتبه المسلمون لحقيقة الفتنة التي ذر قرنهما في ديارهم ، وهل يعيدون الوحدة المفقودة بين العقيدة الإسلامية ، والأصول العلمية والسياسية ، وبين المنهج الرباني في الحركة والتطبيق ؛ ليعود الإيمان وحدة متكاملة في الاعتقاد والعلم والعمل؟!

الهوامش :

١- وردت هذه التلبية حكاية في حديث متفق عليه.

٢- وهو ما يُدعى بالفكر العلماني !

شذرات وقطوف

اختيار: مازن محمد راغب

ضرورة العلماء للأمة

الناس بلا علماء هم جهال ، تتخطفهم شياطين الإنس والجن من كل حذب وصوب ، وتعصف بهم الضلالات والأهواء من كل جانب ومن هنا كان العلماء من نعم الله - تعالى - على أهل الأرض فهم مصابيح الدجى ، وأئمة الهدى ، وحجة الله في أرضه ، بهم تُمحق الضلالة من الأفكار وتنشع غيوم الشك من القلوب والنفوس ، فهم غيظ الشيطان وركيزة الإيمان وقوام الأمة... وهم ورثة الأنبياء ؛ قال عليه الصلاة والسلام: "... وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء ورثة الأنبياء". كل هذا الفضل للعلماء العاملين ، الجريئين في الحق ، المحبين للخير ، الأمرين بالمعروف ، الناهين عن المنكر ، المحاسبين للحكام ، الناصحين لهم ، والساهرين على مصالح المسلمين ، المهتمين بأمور الأمة ، المتحملين كل أذى ومشقة في هذا السبيل. نعم ، كل ذاك الإكرام للعلماء الذين يحرسون الإسلام الأمانة على دين الله الداعين الحكام إلى تطبيقه بلسان صدق وجنان ثابت.

(عبد العزيز البديري - رحمه الله - في "الإسلام بين العلماء والحكام")

@ وحدها فقط

الحضارة الإسلامية وحدها تقوم على التوحيد والإيمان بالله وكتبه واليوم الآخر ، وتتمثل الأخلاق وتنتهج الوضوح والصدق وهي أمور انسلخت منها الحضارات الأخرى فتعرت من الفضائل التي لا تقوم بغير هاتيك المقومات وغدت منها مفلسة.

واستمداداً من ذلك فإن الحضارة الإسلامية تتحصن بالوحدة والتوحد ، وتتسم بالكمال والشمول والذوق والأناقة ، وتستعلي بالألفة والمحبة والانسجام والوئام والطهر والنظافة والصدق والقوة وتزهو بالتححرر والحركة والانطلاق الاجتماعي الخير في وجهته يقودها إلى الله التزام بطاعته وأخذ بشريعته.

(الدكتور عبد الرحمن الحجبي: "جوانب من الحضارة الإسلامية")

الوجوه رسل القلوب

ولا تكثر على ذي الضعف عتياً ولا ذكر التجرم للذنوب

ولا تسأله عما سوف يبدي
متى تك في صديق أو عدو
ولا عن عيبه لك بالمغيب
تخبرك الوجوه عن القلوب

زهير بن أبي سلمى

حاجتنا إلى علم الإدارة

سامي سلمان

أصبحت الحاجة إلى الاستعانة بالجوانب الإدارية في كثير من جوانب الحياة أمراً أساسياً ومهماً ؛ إذ إن الأمور لم تعد من البساطة بحيث يستطيع الفرد أن يعالجها بالطرق التقليدية المعتادة. وقد أصبح الفرد يعيش في خلايا من العلاقات المتشابكة على كل صعيد ، والتي تشمل جوانب الحياة الفردية والاجتماعية ، أو على مستوى العلاقات المحلية والعالمية للهيئات والمنظمات ، ويشتمل كل جانب من هذه الجوانب على جزئيات من الخلايا تشكل - بحد ذاتها - دائرة من العلاقات المتشابكة بحيث أصبح جانب معالجة الأمور وإدارتها، ومتابعتها متأثراً في غالب الأحيان بنسبة كبيرة من هذه العلاقات، وهنا تظهر الحاجة إلى الجانب الإداري الذي يطرح طرق الحل بشكل منظم ومبرمج ومتكامل، ويلفت الانتباه إلى مسلمات من نتاج تجارب الآخرين تختصر الوقت وتوفر الجهد، وتعطي نتائج مثمرة وتساعد على تحقيق الأهداف بشكل أفضل.

ولكى يتضح هذا الأمر لابد من تحديد معنى الإدارة بمفهومها البسيط.

فالإدارة عبارة عن: عملية اجتماعية مستمرة ، تعمل على استغلال الموارد المتاحة استغلالاً أمثل عن طريق التخطيط والتنظيم والقيادة والرقابة للوصول إلى هدف محدد. وبهذا فإن الإدارة بمفهومها الشامل لسلوك الفرد تشمل جوانب التصرف السلوكية له في بيئته وعمله ودعوته وتجارته، مما يتيح له الاستفادة من الإمكانيات المختلفة أفضل استفادة باستخدام أفضل وسيلة لتحقيق أفضل هدف. فإذا اتضح لك هذا علمت مدى الخسارة التي يتحملها الفرد والجماعة والمؤسسات والدول عند إدارتهم لأمرهم بالطرق التقليدية التي لا تأخذ باعتبارها مثل هذا المفهوم ، أو قد تأخذ بجوانب منه دون الجوانب الأخرى ، وقد خسر المسلمون كثيراً من مواردهم وطاقاتهم واستخدمت وسائل تقليدية سطحية في إدارة شؤونهم ، وتبع ذلك قصور واضح في تحقيق الأهداف المرجوة... هذا إن كانوا قد وضعوا لأنفسهم أهدافاً عند ممارستهم لأي عمل.

والمثل كفيل بجعل الأمر أكثر وضوحاً ، ولك أن تقيس عليه أي واقع تشاء على مستوى أسرتك ودعوتك وعملك. وليكن هذا المثل مأخوذاً من مجال الدعوة ، فإن استفادتك من تفهمك واستخدامك لمفاهيم الإدارة يعينك في أمور عدة ، فإن من مستلزمات الإدارة الناجحة ما يذكره أحدهم في سطور قليلة فيقول: "إن قدرة المسؤولين وأرباب الأعمال على تأمين مناخ عمل ملائم لمساعدتهم ومن يعمل تحت إشرافهم للعمل بإخلاص وكفاية عالية - تعد من مؤشرات النجاح في الإدارة. فمناخ العمل الملائم هو المناخ الذي يقود العاملين إلى جعل أهدافهم كأفراد متناسقة مع هدف المجموعة بحيث تكون حصيصة تحقيق أهداف المجموعة أكبر من مجموع الجهود الفردية لهؤلاء العاملين وبالتالي هذا يعني تحقيق أهداف المؤسسة أو الشركة التي تعمل بها المجموعة".

وعليه فإن من مستلزمات جعل العاملين من الدعاة في الوسط الدعوي الواحد أن يهيئ لهم المناخ المناسب للدعوة مما يجعلهم يوحدون جهودهم ويخلصون في تحقيق الهدف ، والعكس الصحيح ، فإن

عدم وجود مناخ صحي يثبط العاملين ، ويساعد على نمو الفردية في تحقيق الأهداف ، مما يؤدي إلى عدم تضافر الجهود ، والتأخر في تحقيق الهدف ، وقس على ذلك كثيراً من مفاهيم الإدارة التي تفيدك وتعينك على السير في أمورك بصورة واضحة ومنظمة ، فإنك لو عدت إلى تعريفنا الذي ذكرناه أنفاً سوف تجد أننا اعتبرنا التخطيط والتنظيم والقيادة والرقابة دعائم الإدارة المتكاملة ، وأستطيع أن أقرب لك الصورة لو توسعت في الحديث عن كل جانب وربطه بالأمثلة المختلفة من واقع حياة الأفراد ، وسيظهر لك كم نحن بحاجة إلى القيادات التي تخطط وتنظم مسبقاً لتحقيق أهداف مرسومة ثم تقود الجهود بمهارة إدارية متقنة مع وجود الرقابة الدائمة للتأكد من صحة منهج السير رجاء تحقيق الهدف.

وكم عانت الدعوة الإسلامية من إهمال هذا الأمر الذي يبدو بدهياً ولك أن تسأل نفسك هذه الأسئلة:

ألم تعانِ الدعوة من عدم وضوح الهدف؟

ألم تعانِ الدعوة من عدم التخطيط والتنظيم؟

ألم تعانِ الدعوة من فقدان القيادة القادرة على الاستفادة من المصادر المتاحة ، ومن ضعف قدرتها على مراقبة نفسها ومحاسبتها عندما تحيد عن الطريق؟

لقد عكف الكثيرون من علماء الإدارة على رسم خطوط عريضة لجوانب الإدارة المهمة كي يستفيد منها من يتحملون عبء المسؤولية في حياة الأمم ، واستطاعوا من خلال التجربة أن يضعوا نظاماً دقيقة مبرمجة لها أثرها الكبير في تسيير الأمور بحكمة وروية ، وإدراك عميق للنتائج ونسوق مثلاً شائعاً في علم الإدارة وهو "اتخاذ القرار" الذي يصفه أحد الكُتّاب بقوله: "يعتبر اتخاذ القرار بشكل عام من أهم العناصر وأكثرها أثراً في حياة الأفراد وحياة المنظمات الإدارية ، وحتى في حياة الدول ، وتتبع أهمية هذا الموضوع من ارتباطه بعمل الإنسان اليومي أو حياته العائلية أو أي مجال من مجالات النشاط الإنساني".

فالأفراد هم محور هذا الموضوع الأساسي ، سواء بالنسبة للقيادات الإدارية التي تتخذ القرارات لتوجيه أعمالها ونشاطاتها ، أو بالنسبة للمرؤوسين الذين يشاركون في صنع القرارات ، أو في تنفيذها ، أو يكونون هدفاً لها ، كما تتبع أهمية هذا الموضوع من ناحية أخرى من ارتباطه بتحقيق الأهداف على اختلاف أنواعها ؛ إذ طالما هناك مجال للاختيار بين أكثر من بديل للوصول إلى هدف ما كان هناك اتخاذ قرار وذلك باختيار البديل الأفضل ، وهكذا تستمر عملية اتخاذ القرارات طالما هناك عمل ونشاط لتحقيق أهداف مطلوبة (١).

وتتضح لك أهمية هذا الجانب إذا نظرت إلى الطريقة المثلى في اتخاذ القرار ، وإن اختلفت المدارس الإدارية في عرضها ، فإن من أساسياتها مراحل متتابعة لضمان السلوك الأمثل في الوصول إلى القرار الأمثل كذلك، وهذه المراحل هي:

١- تشخيص الأمر محل القرار.

٢- تحليله ودراسة الجوانب المتعلقة به.

٣- طرح البدائل المتاحة لاتخاذ القرار.

٤- تقويم البدائل بذكر سلبياتها وإيجابياتها ووزن كل منها على حدة.

٥- اختيار القرار الملائم لهذا الأمر.

ولا تتوقف هذه العملية عند هذا الحد ، بل لا بد من متابعة تنفيذ القرار لمعرفة مدى النجاح الذي حققه هذا القرار في تحقيق الهدف أو حل المشكلة المعنية ، وقد أوردنا هذا المثل في سياق الحديث عن الحاجة إلى الجانب الإداري في الحياة ، فلو عدنا إلى مثالنا السابق في (مجال الدعوة) لوجدنا

أن اتخاذ القرار بعفوية وارتجالية شائع اتخاذ القرار ويكاد يكون هو القاعدة وما عداه هو الشاذ ، مع عظم شأن مثل هذه القرارات في حياة ومسيرة الدعوة ؛ مما قد يؤخر مسيرة الدعوة الإسلامية مراحل ومراحل ، مع أنه لو أستعين بالمدرسة الإدارية الأنفة الذكر لكان أجدر ؛ فإن مما يعيب قراراتنا أنها لا تنظر إلى الأمور بشمولية وسعة أفق ، ولا تبحث عن البدائل المطروحة قبل اتخاذ القرار ، ولا ينظر إلى الآثار التي يتركها تنفيذ القرار في الواقع . وإن المتمعن في نصوص الكتاب والسنة ليلمس وبوضوح أمثلة عديدة لما ندعو إليه ، وإن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم- فيها أمثلة كثيرة نرجو أن نوفق إلى عرضها ، والإشارة إليها في المستقبل القريب إن شاء الله .

الهوامش :

١ - اتخاذ القرارات الإدارية ، د. نواف كنعان ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٥ م ، ص٧.

أدب وتاريخ إلى أمي.. مع التحية

شعر: عبد الإله عبد الهادي

حماك الله يا أمي وعافاك
من الأوجاع والآلام
وعين الله ترعاك ... وترعانا مدى الأيام
عفا عنا وعنك الله يا أمي وطهرنا من الأخطاء والآثام
فيا أمي أنا الطفل الذي ربته كفاك
وكم سهرت طوال الليل كي ترعاه عينك
غدا رجلاً بفضل الله يا أمي
وحين تصيح بالأعماق ذكراك
ويشتعل الحشا شوقاً
وهذا الوقت لا يمشي
وأصداءً من الأعماق تصرخ بي:
متى رباه تأذن لي؟
متى أماه ألقاك؟
يُرى يبكي ... كطفل ضائع شاكٍ

أجيء إليك يا أمي بأحلامي
عساكر سادتي الحكام حيث أسير من خلفي وقُدامي
وتفصلنا مسافات بها الأهوال أصنافاً
إذا ما سرت عن بلد رأيت بغيره الأهوال أضعافاً
ففي بلد
إذا جنّت الحدود يقال يا أمي..

يُرى في شكله الدين
أعيدوه
فهذا الصنف رجعي وأفيون
وفي بلد تقول عساكر السلطان يا أمي
أتاكم من بلاد الشرك مرتداً فردوه
وإلا فهو مملوك أنلوه
وفي بلد إذا قدمت للسلطات ما طلبوا
يقال: ارجع إلينا بعد شهرين
سنبحث وضعك الأمني في كل الميادين
تزور بلادنا أهلاً ولكن ما هو السبب؟!
لأي منظمات كنت أو ما زلت تنتسب!؟

دروب كلها بالشوك والألغام مزروعة
على لوحاتها كتبوا:
هنا مولاي مسموعة
هنا القبلات للأقدام بالقانون مشروعة
قوانين البلاد تحذر الإخوان والأخوات
عليكم أن تراعوا حرمة القانون والعادات
يعاقب من يفكر دون ترخيص من السلطات
يكون مخالفاً من مارس الأحلام والآهات
لذلك فاتقوا الشبهات
دروب الكون مظلمة وتقطعها على الناس الشياطين
وكل الناس في الدنيا مساجين
قد اتفقت على هذا القوانين
إذا ما رحمة نزلت تصادرها القوانين
وإن ثار المساكين
على ظلم يحيق بهم
تسن لهم قوانين
فكيف أسير يا ربي إلى أمي؟!
وتفصل بيننا هذه القوانين
أعوذ بنور وجهك يا إلهي إنها أمي
وهذا الكون أظلم كل ما فيه
دعاة الخير والإصلاح مغلوبون في شتى نواحيه
فأنزل يا إلهي رحمة لتعود للناس الأحاسيس
وينتشر الهدى في الكون ترفع راية الإسلام في كل الميادين
بلا خوف ولا شكوى ولا منة
نسير على كتاب الله والسنة

طريق واحد يهدي إلى الجنة
 بلا خلط وترقيع
 ولا نقص وتفريع
 فهذا الدين تشريع من المولى
 وما في الكون مخلوق له حق بتشريع
 يعيش المرء في الإسلام إنساناً
 فلا ظلم ولا بخر ولا يشكو الورى رَهَقاً
 إذا الناس استقاموا خلف نهج المصطفى صُدُقاً
 سقاهم ربهم ماءً شراباً طيباً غَدَقاً
 وعاشوا في نعيم الله في دنيا مثالية
 حياة كلها طهر وإيمان وإيثار وحرية
 فلا عدوان فيها أو أنانية
 صباح مساء يا أمي أراك معي بأحلامي
 دعاؤك دائم لله يرعاني
 يثبتني على الإيمان يحميني
 من الآلام والأحزان والهم
 أنا منك.. أينسى نبعه الماء؟!
 وإن طال الرحيل بنا
 وإن عجت بساح الدار أبناء
 سأبقى طفلك المشتاق خلف تخوم آفاقي
 أحن إليك كالعطشان ليس سواك لي ساق
 سأبقى موثقاً بقيود أشواقي
 إلى أن يأذن المولى بإطلاقي
 إذا ما ظل من عمر لنا باق
 بإذن الله يا أمي بهذا الصيف نلتاكم
 ونسعد كلنا بنعيم مرآكم
 فيا أحببنا إننا نعيش حياتنا شوقاً للقياكم
 إلى أن نلتقي ندعو إله العرش يرعانا
 ويرعاكم...

من المسؤول
 عن كراهية الأجيال الجديدة للغة العربية؟!

منصور الأحمد

إذا كنت من محبي هذه اللغة ، ومن الذين يجعلونها همهم في الليل والنهار ؛ فلا شك في أن همك سيزداد ، وشعورك بالقلق سيتضاعف وأنت ترى حال هذه اللغة العظيمة وقد انحدرت على السنة أهلها وأقلامهم إلى مستوى لا يسر.

تُرى ، ما الذي أدى بورثة هذه اللغة (ولا أقول: بهذه اللغة) إلى أن وصل حالهم إلى أن لا تواجه طالباً ولا دارساً إلا شاكياً من تعلمها ، ناعياً على مدرسيها ، مفتخراً بأنه كان لا يعيرها بالأحينا كان على مقاعد الدراسة؟!!

وعندما تسترعي انتباهه إلى خطورة ما استهان به يواجهك بإحدى اثنتين ، أو بكليهما معاً:
* باعتذاره بصعوبتها ، وتعقيد نحوها وصرفها ، وجفاف أسلوب تدريسيها.

* أو بهز كتفيه غير مبالٍ بما تقول ، وبالتثقل من هذا الموضوع الذي تطرحه معه!
ومع أن مناقشة مثل هذه القضية تحتاج إلى مدى أوسع ، وعلم أغزر ، ومجال غير هذا المجال ، ولكن لا بأس بأن نقول فيها وجهة نظر لعلها تبعث الغيرة وتستنهض الحرص والنظر بجد إليها. هناك مشكلة ، وهي جهل الكثير من الأجيال الجديدة من المتعلمين بلغتهم ، وهذا ملاحظ لا يُنكر. ويتفرع عن هذه المشكلة أمر آخر - وهو الأشد خطراً - وهو الكراهية لهذه اللغة بحجة أنها صعبة ومعقدة ، ونكران ذلك تجاهل للمشكلة ، وهروب من مواجهتها.

وإذا حللنا المشكلة إلى عناصرها لمعرفة الحل فإننا يجب أن نبحث في ثلاثة عناصر: المدرس ، والمنهج ، والطالب ، وكل عيب في واحد من هذه العناصر يساهم بقدر من المشكلة.

* أما المدرس فإن إعدادة إعداداً كافياً ومنتجاً يتطلب تغيير الأسس المعمول بها في طول العالم العربي وعرضه في معاهد المعلمين وفي الجامعات من أجل تخريج المعلم ، وإقامة نظام تعليمي يشعر معلم اللغة العربية بقيمته وأثره ، وذلك باختياره وإعداده وتوجيهه لهذه المهمة في وقت مبكر ، وعدم إشغاله بدراسة أو تدريس معلومات تصرفه عن المهمة الرئيسية التي صرف إليها.
* وأما المنهج فإن النظر بتعلق بإعداده ثم تطبيقه ، والمناهج الموجودة - وإن لم تكن على مستوى عالٍ من التركيز - لو طبقت ونفذت بشكل جدي لكانت النتيجة أفضل مما هي عليه الآن. ومن خلال التجربة يلاحظ أن العمل الحالي في كثير من البلدان العربية في تطبيق مناهج اللغة العربية - هو بعيد عن الجدية في التطبيق ؛ حيث إن جهد المدرس المسكين يُستنفد في عمليات حسابية (جمع وضرب وتقسيم درجات الامتحانات) هي أبعد ما تكون عن نفع الطالب أو إضافة أي مردود إلى تكوينه العقلي.

وإن مهندسي هذه العمليات الحسابية هم من المهارة والحرفة بالقدر الذي يجعل أبلد الطلبة وأبعدهم عن فهم العربية يقتنصون (أو تُقتنص لهم) درجة من هنا ودرجتين من هناك بفضل هذه الحيل الحسابية مع أنهم غير قادرين على كتابة فقرة صحيحة!

* وأما الطالب فإن مشكلته أعمق وأكثر تعقيداً ، فالهوة متسعة بين اللغة التي يتعلمها والمجتمع الذي يعيش فيه ، فكل ما حوله ناطق بلغة غير صحيحة: المدرسون (بمن فيهم مدرسو العربية) والبيت ، والراديو ، والتلفزيون ، والشارع... فكيف يستطيع هذا الطالب أن يسبح ضد التيار ويتقن لغة تلقى مثل هذا الإهمال والجحود والاستهانة؟! ، وكيف يفتنح بفائدة ما يتعلمه وهو لا يجد له تطبيقاً معقولاً على السنة المتعلمين؟!!

لا بد من النظرة الجادة التي تتفحص العوائق والأسباب التي تغرس الكراهية لهذه اللغة والبعد عنها ، وإلا فإن هذه الكراهية العملية (ودعنا من الخطب والإنشاء في الإشادة بهذه اللغة وعبقريتها) سوف تؤدي إلى دفنها ، ويوم تُدفن هذه اللغة فاقراً على هذه الأمة السلام!

قراءات تاريخية العلماء والأمراء

الكامل لابن الأثير ١٥١/١٠

وفيات الأعيان ٢٨/٥

كان أبو عبد الله المعتمد محمد بن عبّاد أعظم ملوك الأندلس من المسلمين وكان يملك أكثر البلاد مثل قرطبة وإشبيلية، وكان يؤدي إلى (الأذفونش) ضريبة كل سنة، فلما ملك الأذفونش طليطلة لم يقبل ضريبة المعتمد وأرسل إليه يتهدده ويقول له: تنزل عن الحصون التي بيدك ويكون لك السهل، وكان رسول الأذفونش في جمع كثير كانوا خمسمائة فارس وأحضر ابن عباد الرسول وصفعه حتى خرجت عيناه وقتل كل من كان معه ولم يسلم منهم إلا ثلاثة نفر؛ فعادوا إلى الأذفونش فأخبروه الخبر ، فبدأ بالاستعداد للقتال.

وسمع مشايخ قرطبة وفقهاؤها بما جرى ورأوا قوة الفرنج وضعف المسلمين واستعانة بعض ملوكهم بالفرنج على بعض، اجتمعوا وقالوا: هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل ، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت. وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصغار والذلة ، وعطائهم الجزية بعد أن كانوا يأخذونها ، وقد رأينا رأياً نعرضه عليك ، قال: وما هو؟ ، قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية ونبذل لهم ، فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا ، وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله ، فقال: المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا. قالوا له: فكاتب أمير المسلمين وارغب إليه ليعبر إلينا. وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم في ذلك فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه ، فقال له ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك. فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فأبلغه الرسالة، وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش.

وكان أمير المسلمين بمدينة سبته ، ففي الحال أمر بعبور العسكر إلى الأندلس وأرسل إلى مراكش في طلب من بقي من عساكره ، فأقبلت إليه تتلو بعضها بعضاً ، فلما تكاملت عنده عبر البحر وسار ، فاجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية ، وتسامع المسلمون بذلك فخرجوا من كل البلاد طلباً للجهاد. ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع فرسانه وسار من طليطلة ، وكتب إلى أمير المسلمين كتاباً يغلظ له القول ويصف ما عنده من القوة والعدد ، فكتب يوسف الجواب في ظهره: "الذي يكون ستره!" وردّه إليه فلما وقف عليه ارتاع لذلك وعلم أنه بلي برجل له عزم وحزم ثم سار الجيشان والتقيا في مكان يقال له "الزلاقة" من بلد (بطليوس) وتصافوا ، وانتصر المسلمون وهرب الأذفونش بعد استئصال عساكره ، ولم يسلم معه سوى نفر يسير وذلك يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، وأصاب المعتمد جراحات في وجهه وظهرت ذلك اليوم شجاعته وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح وغير ذلك، ورجع الأمير يوسف إلى بلاده، والمعتمد إلى بلاده.

@الصيد الثمين عند الباطنية

في قلعة (آلموت) بالقرب من بحر قزوين كان رئيس الباطنية حسن الصباح يرسل رجاله المجرمين الذين أغواهم بفردوسه وغفرانه - يرسلهم وفي يد كل واحد منهم مديّة حادة لاغتيال

شخصية سنية مهمة ؛ لأن أقصى أمانيه هو القضاء على أهل السنة ، وقد ربي رجاله على الطاعة العمياء ، فما إن يأمر بتنفيذ مهمة حتى يبادر إليها من يظن أنه يقوم بعمل صالح. وأول صيد ثمين نفذ فيه حسن الصباح إجرامه هو الوزير القدير نظام الملك الحسن بن علي وزير الملك السلجوقي ألب أرسلان ، وكان من عقلاء الرجال وأفاضلهم وهو الذي تنسب إليه المدرسة النظامية في بغداد ، وكان على علم بأباطيل الباطنية وخطرهم على الإسلام وقد بدأ بإعداد العدة لمهاجمتهم والقضاء عليهم ، وقد قتل أحد رؤساء حلقاتهم ؛ ولذلك قرروا قتله وهذه رواية كتبهم -لعنهم الله- :
 "نصب سيدنا (حسن الصباح) فخاخه وأحابيله لتمسك في شباك الموت الفناء قبل كل شيء بصيد ثمين مثل نظام الملك وبهذا الصنيع أصبحت شهرته وسمعته عظيمة وقال: من منكم سيخلص هذه الدولة من شر نظام الملك الطوسي ، فوضع رجل يدعى أبو طاهر الأرائي يد القبول على صدره ، وفي ليلة الجمعة في الثاني عشر من رمضان لسنة ٤٨٥ هـ وفي منطقة نهاوند جاء بزي صوفي إلى نظام الملك الذي كان محمولاً من مكان العامة إلى خيمة نسائه وضربه بسكين ، ونظام الملك هو أول رجل قتله الفدائيون.. وقال سيدنا: إن مقتل هذا الشيطان هو بداية الغفران" (١).
 كانت هذه بداية سلسلة طويلة من الإجرام الباطني طال زعماء أهل السنة من علماء وملوك حتى إنه ما من أمير أو قائد من قواد الدولة السنية إلا وخشي على نفسه وأخذ الاحتياطات اللازمة.

الهوامش:

١- برنارد لويس: الحشيشية نقلاً عن المؤرخ رشيد الدين ، ٦٢.

شؤون العالم الإسلامي ومشكلاته

باكستان وتحكيم الشريعة الإسلامية

إذا كانت الدعوة إلى تحكيم الشريعة قد أصبحت مطلباً ملحاً عند شعوبنا في جميع بلدان العالم الإسلامي ؛ لا تستطيع وسائل الإعلام العالمية تجاهلها أو التقليل من أهميتها... فلهذه القضية شأن آخر في باكستان المسلمة، التي خاضت صراعاً دامياً مع الهندوس، وقدمت قوافل الشهداء دفاعاً عن دين أمتنا وعقيدتها ، وتوج هذا الصراع المرير باستقلال معظم المسلمين في وطن لهم سمي "باكستان" أي: الأرض الطيبة أو الطاهرة.

وكان جميع سكان باكستان من المسلمين، باستثناء أقلية ضئيلة جداً من الهندوس والسيخ، وبينهم نسبة كبيرة من "المهاجرين" وهم الذين هاجروا من الهند إلى باكستان فراراً بدينهم وبدهي في ظل الأوضاع الجديدة أن تطبق أحكام الشريعة الإسلامية ، وهذا الذي ينشده الشعب بأسره ، ومن أجل ذلك استعذب الموت في سبيل الله. غير أن الذي حدث في باكستان بعد إنشائها مستغرب أشد الاستغراب ، ومستنكر أشبع الاستنكار ، فالمخضرمون من السياسيين - الذين صنعه الاستعمار الإنكليزي خلال احتلاله للهند من أمثال آغا خان، وجناح وغيرهما من أفراس القرامطة - سلكوا سبيل المراوغة والمكر والتضليل، وأخذوا يعدون ولا يوفون، يكذبون ولا يخجلون ، ووجدوا من يحسن الظن بهم ، ويصفق لهم. وزعموا أن خلافاتهم مع العلماء والجماعات الإسلامية سياسية شخصية ، وهي هي النعمة التي يرددها العلمانيون الظلمة هنا وهناك.

واستنفر الإنكليز وعملاؤهم داخل باكستان ، وراحوا يعملون من أجل تربية أجيال لا تؤمن بالإسلام. وفي ظل هذه الأجواء الموبوءة الملوثة وجد القاديانيون الباب مفتوحاً أمامهم على مصراعيه ، وتشكلت الأحزاب العلمانية القومية ، وورث معظم قادتها زعامة أقوامهم وقبائلهم كبراً عن كابر ، وكانوا غاية في الخبث والدهاء ، فلا يصدرن تصريحات معادية للإسلام ولا يدعون إلى الإسلام ، ويصرفون جهودهم كله إلى تجنيد أهل إقليمهم في الحزب الذي يخطط من أجل الانفصال عن باكستان، وهذا الذي فعله مجيب الرحمن في حزبه الذي لم يكن له وجود يُذكر في باكستان الغربية ، وهذا الذي لا يزال يخطط له عشرات السياسيين في أقاليم مختلفة من باكستان.

وعندما عجز العلمانيون الديمقراطيون عن ضبط الأمور ، وشعر أسيادهم الإنكليز بأن المد الإسلامي يمتد ويقوى ، وفي أجواء الحرية ينهزم دعاة الباطل مهما أنفقوا من أموال ، ومهما ملكوا من وسائل الإعلام ، وينتصر دعاة الحق وإن كانت إمكاناتهم ووسائلهم متواضعة. وكان لابد من خطوة أخرى فأصدر الاستعمار الإنكليز الأمريكي أوامر للعسكريين فتحركوا وكان أول انقلاب عسكري يقوده الجنرال أيوب خان ، وفترة الخمسينيات كانت غنية بمثل هذه الانقلابات في مصر والشام والعراق والعقلية واحدة ، والأهداف واحدة ، وكما قلنا في المقال السابق - باكستان أمام التحديات ، الذي نُشر في العدد الرابع من مجلتنا "البيان" - فإن السفير الأمريكي "كافري" عندما أنهى دوره مع عبد الناصر في مصر انتقل إلى باكستان ليبدأ دوره مع أيوب خان ضد الدعاة والجماعات الإسلامية ، وبعد أيوب جاء يحيى ، وكلاهما خان قضية أمته ، وطبع الشعب الباكستاني أنه ينفر من الحكومات العسكرية ، ويعشق الحرية.

وخلال عقدين من الزمن ثبت فشل العسكريين ، ولهذا فقد عادت الديمقراطية ، ونجح حزب بوتو - حزب الشعب - وكان قد زور الانتخابات ، وأقدم على تدبير محاولة اغتيال أحد زعماء المعارضة ، واستغل السلطة أسوأ استغلال ، فعزته المعارضة ، وكشفت فساد نظامه ، وكان الإسلاميون أبرز قادة المعارضة ، وكانوا مع العلماء وغيرهم مرشحين لاستلام السلطة وإسقاط نظام بوتو ، والقضية كانت قضية وقت ، لاسيما وأن الشعب - كل الشعب - كان ينادي بالإسلام ، ويتساءل باستمرار: لماذا انفصلنا عن الهند ، وما الفرق بين غاندي وجناح ، أو بين نهرو وأيوب ، أو بين بوتو وراجيف وأمه من قبل؟!

- أين الخلافة الإسلامية التي طالما عملنا وجاهدنا وهاجرنا لقيامها؟! وأخيراً قام انقلاب عسكري جديد ، وأسقط نظام بوتو ، وقدمه إلى المحاكمة بتهمة اغتيال أحد رموز المعارضة ، ثم نُفذ فيه حكم الإعدام ، ونجح النظام الجديد في استقطاب المعارضة - التي كان معظمها من الإسلاميين - لأنه أعدم بوتو ، ودعا إلى تحكيم الشريعة الإسلامية ، وهو الشعار الذي يجد رواجاً منقطع النظير في باكستان.

واشترك العلماء والجماعة الإسلامية في أول وزارة ، وأسندت وزارة الإعلام إلى عضو من أعضاء الجماعة الإسلامية ، ووجد الوزير نفسه غريباً في الوزارة ، وكان عليه لإصلاح الوزارة أن يطرد كبار المسؤولين فيها ، ويلغي عدداً من أقسامها ، والنظام العسكري لا يسمح بذلك ؛ ولهذا فقد صدق في الوزير قول الشاعر:

ألقاه في اليم مكتوفاً وقال له إياك إياك أن تبتل بالماء!

وبدأ النظام الجديد بإقامة شيء من الحدود ، لكنه تجاهل المرتدين وقطاع الطرق ، وقادة شبكات النصب والاحتيال - وما أكثرها في باكستان! - ، وعصابات تهريب المخدرات ، وقام بتعزيز الصحفيين الذين ينتقدون النظام ، فكان واضحاً أنه يريد أن يطبق من الإسلام ما يخدم النظام ويساعد

على استمراره. واشترك المعارضة في الوزارة يعني أن الغالبية العظمى من الإسلاميين أيدوا الانقلاب الجديد ، ومن قاداتهم من جاب الأمصار داعياً إلى تأييد الزعيم العسكري ، مشيداً بمناقبه الطيبة ومآثره الحميدة ، وهناك قلة قليلة نوجز موقفهم في النقاط التالية:

١- لم يكن قادة الانقلابات العسكرية من الدعاة إلى الله ، وليس لهم أسبقية في الإصلاح وعمل الخير ، ولا يؤهلهم لهذه المناصب علم شرعي. فضلاً عن ذلك فقد تربوا في مؤسسات ومعاهد منحرفة ، وعاشوا جزءاً من حياتهم في ديار الغرب يتتلمذون على أيدي أعدى أعداء الإسلام والمسلمين ، ويعاشرون المفسدين من الجنسين. ومن يسبر غورهم يعلم أن من أخص صفاتهم النفاق والغدر ، فترى أحدهم حارساً لطاغوت من الطواغيت ، ينفذ أوامره الظالمة ، ويزين له الإجرام ، ويظهر له الحب والإعجاب والتقدير.. وعندما تسنح الفرصة يبطش بسيدته ، ويقود انقلاباً عسكرياً ضده ثم يقدم على إعدامه أو نفيه أو سجنه مدى الحياة ، والإعدام هو الأصل ، ويشن حملة على النظام القديم في أجهزة الإعلام ، ويشيع بين الناس روح الخوف والإرهاب ، ويزعم أنه لا يريد الحكم ، وإنما يريد الإصلاح ، وتمر الأيام ويعلم الناس أنه أشد سوءاً من سلفه ثم يتقدم أحد رفاقه ليقود انقلاباً ضده... وهكذا.

٢ - هناك شبه كبير بين الانقلابات العسكرية والحركات الباطنية المسلحة في تاريخنا الإسلامي ، ومن أهم أوجه الشبه ما يلي:

- ليس لهم أسبقية في العمل الإسلامي ولا يعرف الناس عنهم شيئاً لا خيراً ولا شراً.
- يتظاهرون بالورع والتقوى والرغبة في الإصلاح ، حتى إذا وثق الناس بهم بدأوا تدريجياً في تغيير شرائع الإسلام.

- سبيلهم إلى التغيير استخدام العنف والبطش والتنكيل ، ويسهل عليهم إزهاق الأرواح ، وسجن الأبرياء ، وإشعال نيران الفتن.

- لا يتحركون من خلال منهج ، وليس عندهم ثوابت لا يخالفونها ، فتارة يبالغون في تمسكهم بالإسلام ، وتارة يبالغون في الزندقة والإلحاد ، ولا يقبلون أن يحاسبهم أحد أو يسألهم: لِمَ فعلتم كذا وكذا!؟

٣ - لا يكون الدين كله لله في الأرض ولا تحكم الشريعة الإسلامية ، إلا إذا قامت نخبة مؤمنة تدعو إلى الله - سبحانه وتعالى - وتجاهد في سبيله ، وتصبر على الأذى.
ولا يكون الدين كله لله في الأرض أيضاً إلا إذا نهض بهذه الدعوة علماء مجاهدون أمرون بالمعروف ناهون عن المنكر ، يلتف الناس حولهم ، ويسمعون لهم ويطيعون.. أما أن لا يكون للعلماء والدعاة والجماعات الإسلامية أي دور في إشادة هذا البناء الضخم في حين يتولاه عسكريون نكرات ، يعجزون عن فهم النصوص الشرعية ، بله الاجتهاد في القضايا المعاصرة التي تحتاج إلى اجتهاد ، ثم يرفضون إشراف العلماء ، وإذا سألتهم قالوا: لا نعتزف بقيادة غير قيادة الجيش. وفي هذه الحال نقول لهم: عملكم هذا يخالف سنن الله في التغيير. ومع أن بعض الصفات التي ذكرناها أنفاً متوفرة عند قادة الانقلاب الذي أطاح بنظام بوتو ، ولو علم الأخير أنهم سيغدرون به لما أبقاهم في الجيش يوماً واحداً ، ومع ذلك فقد سارع الإسلاميون إلى تأييد الانقلاب العسكري ؛ لأن قائد هذا الانقلاب أعلن أنه سيحكم الإسلام!.

انقلاب جديد:

في ١٩٨٨/٥/٣٠ ألقى الرئيس الباكستاني خطاباً في التلفاز ، تحدث فيه عن الأوضاع الداخلية في باكستان ، وأعلن عن حل "البرلمان" ومجلس الوزراء ؛ لأن رئيس الوزراء فشل في وضع حد للفساد الذي استشرى في البلاد ، وفشل في وضع حد لأعمال العنف العرقية بين المواطنين. وقال: إنه وجد نفسه أمام خيارين: إما أن يبقى صامتاً متفجعاً أو يضع الأمور في موضعها الصحيح ، فاختار الحل الثاني ، لكن ذلك لا يعنى العودة إلى الأوضاع التي كانت قائمة عام ١٩٧٧م ؛ فالدستور لن يعلق أو يلغى ، ولن يعود قانون الطوارئ ، ولن تفرض الأحكام العرفية ، وستبقى الأحزاب السياسية كما هي تزاوّل أنشطتها ، ووعد بأن الانتخابات ستجرى خلال ثلاثة أشهر - كما ينص الدستور على ذلك - وكان الحزن بادياً على وجه الرئيس الباكستاني وهو يخطب ، وقد ألغى زيارة للصين كان من المفروض أن تتم في ٥/٣٠ وهو اليوم الذي أعلن فيه انقلابه الجديد ، ثم توالى خطبه في التلفاز:

* فمساء ٦/٢٥ خطب ودافع عن قراراته الجديدة وقال: إنه استخدم الصلاحيات التي منحها الشعب والدستور له ، وأكد أن قوانين باكستان ونظامها الاقتصادي سوف تتبدل.

* وفي ٦/٢٥ خطب خطبة مؤثرة ، وكان يبكي ، ويمسح وجهه وأنفه بمنديل أبيض كان يحمله في يده ويقول: إننى أخاف الله وأخشاه ، وأعلم أنه سوف يسألني غداً: لماذا لم تحكم الشريعة الإسلامية؟! ، والشعب سوف يسألني: لماذا لم تأخذ على يد الظالم؟!.

وإنه لمنظر مؤثر حقاً أن يشاهد المواطنون رئيسهم على شاشة التلفاز وهو يبكي من خشية الله ومخافة أن يحاسبه في قبره عن عدم تحكيم الشريعة وعن الظلم والفساد - كما يقول - وقال ضياء الحق: إنه آتٍ بفجر جديد ، ويناشد الناس التمسك به ، وذكر أمثلة عن لقاءات تمت بينه وبين فقراء الناس ، واستمع إلى مطالبهم ، ووعد بتوفير مأوى لمن لا مأوى لهم ، وتأسيس صندوق لمنح صدقات للنساء الفقيرات اللواتي يرغبن في الزواج ، وأنه سيصنع بالإسلام واقعاً في باكستان لا مثيل له... واتخذ ضياء الحق فور الإعلان عن انقلابه الجديد الإجراءات التالية:

١- شكّل وزارة جديدة في ١٩٨٨/٦/٩ برئاسته ، والوزراء مزيج من وزراء حكمه العرفي السابق ، ووزراء كانوا أعضاء في حكومة محمد خان جونيغو التي قاد ضياء الحق انقلاباً أبيض ضدها.

ومن الأسماء البارزة في الحكومة الجديدة:

- صاحب زاده يعقوب خان ، عيّنه في منصبه السابق نفسه ، وزيراً للخارجية ، وهو من أصدقاء ضياء الحق وكان ضابطاً في الجيش ، كما كان مسؤولاً عن مفاوضات جنيف لحل المشكلة الأفغانية. - الدكتور حبيب الحق وزير المالية والتجارة وهي الوزارة التي كان مسؤولاً عنها إبان الحكم العرفي في عام ١٩٧٧.

- وضمت الوزارة زعيمين سابقين من زعماء حزب الشعب الذي كان يتزعمه "بوتو" ، الأول مير هزار خان بجراني والثاني مير أفضل خان كانا عضوين في حكومة الوحدة الإسلامية التي كان يرأسها جونيغو.

وضمت الوزارة عضوين من أعضاء مجموعة معارضة مستقلة في الجمعية الوطنية التي حُلّت ، أما بقية أعضاء الوزارة فهم أعضاء في الرابطة الإسلامية.

وكان قد أعلن عن تشكيل الوزارة مساء ٦/٩ بعد لقاء طويل بين ضياء وحردان شاه الذي كان عضواً في مجلس الشيوخ وكان مستشاراً روحياً - صوفياً - لجونيغو ، والشيخ حردان له نفوذ واسع في إقليم "السند" ، وفسر السياسيون هذا اللقاء بأنه عبارة عن صفقة عقدها الرجلان:

الرئيس سوف يستمر في دعم الرابطة الإسلامية ، والشيخ حردان يتخلى عن جونيغو ويقف بإمكاناته كافة مع الوضع الجديد.

٢ - ظهرت آثار الانقلاب الجديد على برامج التلفاز التي تملكه الحكومة ، فقد مُنعت الدعايات التجارية التي تتضمن صوراً للنساء في حالات مشينة مثل الرقص والغناء ، وزاد عدد البرامج الإسلامية ، وتم تعيين أشخاص جدد مؤيدين للوضع الجديد ؛ مهمتهم الإشراف على التلفاز ومراقبة تطبيق ما يأمر به القادة.

٣ - كان العلماء قد صاغوا مسودة تحكيم الشريعة الإسلامية - في عهد حكومة جونيغو - وكان رئيس الوزراء السابق قد جمد تطبيق هذه المسودة ، وجاء ضياء الحق بعد ٨٨/٥/٣٠ ليعلن عن التزامه بتطبيقها ، وفعلاً طبق نظام الصلاة والزكاة ، ووعد بأنه قريباً سيطبق نظام القصاص والدية ، وشكّل لجاناً كثيرة مهمتها "أسلمة" النظام الاقتصادي والتربوي وقال: إن المهمات الأولية للحكومة الجديدة أسلمة القوانين ، وأعلن في ٦/١٦ أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الأعلى للقوانين في باكستان ، وبموجب هذا القرار الجديد يجوز للمحاكم العليا إلغاء أي قانون يتعارض مع أحكام الشريعة الإسلامية باستثناء القوانين الدولية ، والاتفاقيات المالية الداخلية المعمول بها حالياً بالإضافة إلى سندات التأمين والصكوك.

٤ - أعاد ضياء الحق إلى سدة المناصب العليا الجنرالات المتقاعدين الذين كانوا مسؤولين إبان فترة الأحكام العرفية ما بين عام ١٩٧٧ وعام ١٩٨٥ م ، وأصبح حكام الأقاليم من الجنرالات ومن أشدهم الفريق المتقاعد رحيم الدين الذي عينه حاكماً لإقليم السند ، ومن المتوقع أن يتخذ الحاكم الجديد إجراءات صارمة ضد القوميين من سكان السند الذين يطالبون بالانفصال عن باكستان - كما حدث في باكستان الشرقية - ويقومون باعتداءات متتالية ضد المهاجرين الذين يقطنون في هذا الإقليم.

وعزل ضياء الحق الدبلوماسيين الذين اشتركوا في محادثات جنيف ووقّعوا الاتفاقية التي بموجبها تم انسحاب السوفييت من أفغانستان ، وأقال كبار المسؤولين في السلطة الذين كانوا مؤيدين للرئيس جونيغو.

المعارضون:

١- الشيعة: أعلن رئيس حركة تنفيذ الفقه الجعفري "عارف الحسيني" أن أتباعه لا يقبلون بالقوانين الجديدة التي وصفها بأنها غير مستكملة وغير مقبولة لدى الشيعة. ومن الجدير بالذكر أن الشيعة في باكستان لا يعارضون ضياء الحق ، وإنما يعارضون القوانين الإسلامية السنية ، وإذا كانت هذه القوانين غريبة - كما هو الحال - فلا يعارضونها ، ومن جهة أخرى فقد زعم عارف - فيما نقلته عنه صحيفة "إندبندنت" ١٦/٦/١٩٨٨ - أن عدد الشيعة عشرون مليوناً ، والحقيقة أن عددهم لا يتجاوز ثمانية ملايين نسمة ، ومن عادتهم تضخيم عددهم ، وعلى الأقل يضربون العدد الصحيح بضِعفه.

٢- حزب الشعب الذي تقوده الآن "بي نظير" ابنة علي بوتو ، ومع أن الحزب ضعيف الآن - بعد فقدان رئيسه الذي أعده ضياء الحق ، ولأن الرئيس الباكستاني تمكن من شق الحزب واستمال عدداً من كبار زعمائه - مع ذلك فالحزب من أقوى الأحزاب في باكستان ويعطف عليه الغربيون ؛ لأنه علماني ديمقراطي (هكذا يقولون مع أن علي بوتو كان مستبداً ويتلاعب بالديمقراطية) ، ويعطف

عليه الشيعة ؛ لأن بوتو من عائلة شيعية ، وهذا سبب تدخل إيران الخميني لدى باكستان من أجل العفو عنه.

ومن المؤسف أن كثيراً من الأحزاب والشخصيات المعارضة اتصلت بالحزب لتنسق معه ضد الإجراءات الجديدة.

٣ - استنكرت التجمعات النسوية إجراءات تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، ونظمت مظاهرات في كثير من المدن الباكستانية ، وهذا موقف خبيث كموقف الرفض ؛ لأنهن بهذه التصرفات يعلنن رفضهن للإسلام الذي أباح تعدد الزوجات كما أباح الطلاق ، ولا يسمح للإسلام للمرأة أن تكون رئيسة دولة.

٤ - الجماعة الإسلامية وجماعة العلماء رفضتا "حل البرلمان" ووصف الدكتور خورشيد أحمد - نائب رئيس الجماعة الإسلامية - التحرك بأنه لعبة لتمهيد الانتخابات ، وقال: إن قوانين الشريعة فُرضت لحظر الأحزاب السياسية (تايمز ١٩٨٨/٦/٢١) ، وذكرت بعض صحف باكستان أن أمير الجماعة الإسلامية القاضي حسين أحمد التقى مع بي نظير بوتو مرتين لينسق الموقف معها ضد ضياء الحق ، ولكن أمير الجماعة نفى صحة هذا الخبر ، وقوله عندنا هو الصحيح ، ومما ينبغي التأكيد عليه أن الجماعة الإسلامية وجماعة العلماء لا ترفضان تحكيم الشريعة ، وحاشا لله أن يفكروا بمثل هذه الأفكار ، ولكنهم يرفضون أسلوب الرئيس الباكستاني بعد أن لدغوا من جرحه مرات ومرات!

وجملة القول: لقد رفضت الأحزاب والهيئات والمنظمات كلها هذا الإجراء اللهم إلا الجهات التالية:

١ - الصوفيون: وهؤلاء مع كل حاكم مهما كانت عقيدته والمهم أن يكون حاكماً ، وسيكونون أول من يؤيد النظام الذي يخلف ضياء الحق ، وهذه حال الغالبية العظمى منهم وليس حالهم جميعاً ؛ ففيهم معتدلون زهاد لا يبيعون دينهم بدنياهم ، ولكنهم قلة.

٢ - العسكريون: أعضاء مجلس القيادة، وكبار ضباط الجيش، وطبيعي أن يتظاهروا بتأييد ضياء الحق ولكن من المتعذر معرفة الصادق من الكاذب ، لاسيما وأن منهم رافضة ، وهؤلاء يخططون منذ القديم من أجل السيطرة على جيوش بلدان العالم الإسلامي ، وفي جيش باكستان نسبة غير قليلة منهم - كما سمعنا - فكيف نأتمن هؤلاء وأمثالهم على تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية؟! بل كيف يركن الرئيس الباكستاني إلى أمثال هؤلاء ويزهد بالعلماء والدعاة والجماعات الإسلامية!؟

٣ - معظم أهل الحديث - وليس جميعهم - كان لهم رأي طيب ، قالوا لا بد من تأييد الإجراءات الجديدة ، ولكنهم طالبوا بتشكيل مجلس من العلماء أهل الحل والعقد في باكستان ، وأن يكون هذا المجلس هو المرجع في كل ما يتعلق بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ، وأصحاب هذا الرأي قلة قليلة وهذا لا يضيرهم ولا يقلل من شأنهم.

٤ - عامة الناس الذين لا ينتسبون إلى أحزاب أو جماعات ، وهؤلاء تتجاذبهم اتجاهات مختلفة، ولكنهم يتأثرون بما تقوله أجهزة الإعلام في باكستان، لاسيما وأن أجهزة الإعلام تتبنى الإسلام الذي يدينون به.

أما المعارضة الخارجية فهي لا تقل شراسة عن المعارضة الداخلية، والصحف الغربية تقدم لنا مثلاً واضحاً جلياً عن هذه المعارضة الظالمة ، فليس فيها إلا الهجوم السافر ، وبيان المثالب، وتأليب المواطنين، والدعوة إلى مقاطعة باكستان اقتصادياً؛ لأنها على وشك الإفلاس ، والصحافة الغربية لا يمكن أن تكون حيادية إذا كانت تتحدث عن الإسلام ، وضياء الحق يبقى صديقاً

للغرب مادام يطبق قوانينهم وأنظمتهم ، ويقدمون له الدعم والمساعدة ، أما عندما يتحدث عن تحكيم الشريعة الإسلامية فسيتحول إلى رجل مستبد ظالم ، يعيش بعقلية القرون الوسطى! ، ولو أراد الرئيس الباكستاني استمرار صداقته وتعاونه مع الغرب؛ فالغرب لا يقبل التعاون، وأول دولة ستعيد تقويم علاقاتها مع باكستان الولايات المتحدة الأمريكية وإن زعمت خلاف ذلك. والدول المجاورة لباكستان أشد خطورة عليها وأكثر عداوة من الدول الغربية ، بل هي في حالة حرب - أو قريب من ذلك - مع الهند والاتحاد السوفييتي ونظامه العميل في أفغانستان ، وإيران التي تعد من أشد دول العالم كيداً لباكستان ، ولكل دولة من هذه الدول جيوب داخل باكستان ، ولا نشعر أن النظام مدرك لخطر هذه الجيوب ، ولو كان مدركاً لكان له موقف آخر من النوادي والجامعات ودور النشر والمعاهد والمؤسسات التي تقيمها إيران وعملاء إيران داخل باكستان.

نظرات في تجربة ضياء الحق:

نحن نوافق الرئيس الباكستاني فيما اتهم به رئيس وزرائه ، ولكن من حقنا أن نتساءل: مَنْ المسؤول الأول عن هذا الفشل؟!

١ - فالرئيس الباكستاني عسكري ، والمطلعون على سياسة دول العالم الثالث يعرفون كيف تتم انتخابات المجالس التشريعية، وكيف يتم اختيار رئيس الوزراء، ولم يكن ضياء الحق خلال هذه الفترة بعيداً عن صنع القرار ، وعندما حل الجمعية الوطنية قالها صريحة: لقد استخدمت الصلاحيات التي منحني إياها الدستور والشعب.. فلماذا سكت ثلاث سنين عن استخدام هذه الصلاحيات ، ولماذا جاء استخدامها في هذا الوقت؟!

إذن فالقرار الأخير بيده وليس بيد رئيس الوزراء أو بيد الجمعية الوطنية!!.

٢ - ومدة حكم رئيس الوزراء حوالي ثلاث سنين ، أما ضياء الحق فمدة حكمه إحدى عشرة سنة ، وإذا سلمنا جديلاً أنه خلال الثلاث سنين الأخيرة لم يكن لديه صلاحيات فماذا فعل خلال ثمان سنين؟! ٣ - عندما جاء إلى الحكم ، وتحدث عن تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية هلل الناس وكبروا داخل باكستان وخارجها ، وجاب عدد كبير من علماء باكستان وقادة الجماعة الإسلامية الأمصار ليطمئنوا إخوانهم المسلمين ، وصنع هؤلاء دعاية لضياء الحق لا تصنعها أمريكا ولا غيرها ، ولو أنفقت بلايين الدولارات ؛ لأن المسلمين يثقون بعلمائهم وبقيادة الجماعات الإسلامية ، ولا يثقون بالعسكريين ، لكن الوضع الجديد خذل الناس الذين يدعون إلى تحكيم الشريعة؛ فبعض الأحكام التي سارع في تطبيقها سارع في التراجع عنها. والمسودة التي وضعها العلماء جُمِدت ، وانتعش تهريب المخدرات ، وازداد الفقر ، وعمت الرشوة ، وعندئذ علم الذين كانوا يعيشون في أحلام اليقظة أن قادة النظام الجديد يستغلون الإسلام ويتلاعبون بعواطف المسلمين من أجل الوصول إلى الحكم ، وإقامة شعبية لهم ، أما العلمانيون على مختلف أسمائهم ومسمياتهم - فراحوا يستغلون مواقف النظام استغلالاً مؤسفاً ، وكانوا يوجهون سهام نقدهم إلى الإسلام ، وليس إلى الذين يستغلون الإسلام.

٤ - إن موقف الجماعة الإسلامية وجماعة العلماء من الانقلاب الجديد له أسباب مهمة ؛ فرئيس الانقلاب كان بحاجة إليهم عندما أطاح بنظام بوتو، ولهذا اشتركوا في أول وزارة، ووقفوا إلى جانبه ، وكان يستقبلهم ويستمع إليهم وينفذ معظم ما يطلبون ، وبعد أن قوي نظام حكمه استغنى عن خدماتهم ولكن بقي بابه مفتوحاً أمامهم ، وكان يستمع إليهم لكن أصبح يقول لهم: لي شركاء في المجلس العسكري ، ولا أستطيع فرض المواقف والقرارات عليهم! ، وقبلت الجماعة منه هذا الموقف على مرارته ، والمرحلة الثالثة لم يعد الباب مفتوحاً أمامهم ، وزعم أن الأمور بيد المجلس الوطني

ومجلس الوزراء. وقنع قادة جماعة العلماء والجماعة الإسلامية أن القضية قضية استغلال وتجارة بالإسلام ، فاتخذوا موقفاً متشدداً.

٥- كيف يجمع الرئيس العسكري المسلم بين الولاء لله وبين خضوعه للولايات المتحدة الأمريكية خلال فترة حكمه كلها، وهو يعلم أن الولايات المتحدة عدوة للإسلام والمسلمين، ويستحيل أن تدعم نظاماً إسلامياً؟! ويعرف ضياء الحق أن الولايات المتحدة الأمريكية هي التي صنعت "إسرائيل" في عالمنا الإسلامي ، لقد دعمته وقدمت له السلاح ، كما قدمت له المساعدات المادية ، ولسنا هنا في صدد الاسترسال في ذكر الأدلة والبراهين على تسخير الولايات المتحدة لباكستان ، وهذا الموقف مسؤول عنه ضياء الحق - بكل أسف! - وليس جونيغو.

٦ - غريب أمر الرئيس العسكري ، فعندما حل المجلس الوطني وأقال الوزارة قال: إنني أستخدم الصلاحيات التي منحني إياها الدستور ، وعندما عاد إلى الحديث عن تحكيم الشريعة الإسلامية قال: لقد التزمت بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية عام ١٩٧٧ وإن الشعب قد منحني ثقته في استفتاء عام ١٩٨٤ ويعني أن الشعب منحه صلاحية تحكيم الشريعة. فلماذا رضي طيلة أربع سنين أن يحتكم الناس في بلده إلى قوانين جاهلية غريبة؟! وماذا كان سيقول لربه لو توفاه الله خلال تلك الفترة ، والشعب قد أدى واجبه - كما يقول - وهو الذي لم ينفذ إرادة الشعب؟!.

ولماذا كان يقول لقادة الجماعة الإسلامية وجماعة العلماء: إن لي زملاء

في القيادة ولا يجوز لي الانفراد باتخاذ القرار مع أن الشعب قد منحه وحده الثقة؟!.

الأسباب الحقيقية للانقلاب الجديد:

إن الأسباب التي ذكرها ضياء الحق - والتي دفعته إلى حل الجمعية الوطنية ومجلس الوزراء - ليست مقنعة ، ويصعب الوصول إلى الحقيقة كلها في دول العالم الثالث لاسيما إذا كان الحدث في مراحل الأولى ، وفي باكستان قال ضياء الحق كل ما يريد أن يقوله من خلال خطابه الذي ظهر فيه على "شاشة التلفاز" في ٥/٣٠؟ أما جونيغو فلم يصدر عنه تصريح يدافع فيه عن موقفه، ويبين الأسباب الحقيقية للانقلاب الجديد، والمعارضة مهتمة بالمكاسب التي تعمل على تحقيقها ، وليست مهتمة بكشف أسباب المشكلة.

ومن خلال تتبعنا للأحداث ترجح عندنا أن ضياء الحق اختار جونيغو كرئيس للوزراء لأنه يعتقد أنه سينفذ كل قرار يقرره العسكريون، وربما كان الأمر كذلك في البداية، ولكن الرجل بدأ يتحرر من هيمنة الجنرالات بعد الانتخابات ، بل بدأ يعمل على الإطاحة بضياء الحق وسنبين الأدلة على ذلك:

١- كانت محادثات جنيف المحطة الأولى في الصراع على السلطة بين الرجلين ، فرئيس الوزراء جونيغو كان يرى أن المجاهدين الأفغان عبء ثقيل على باكستان ، وربما أدى استمرار وجودهم إلى صراعات داخلية في باكستان، وكان يرى أيضاً أن التفاهم مع السوفييت أهم من التعاون مع الأمريكان، وكانت المعارضة ترى رأي جونيغو، وبعد التوقيع على معاهدة جنيف كان جونيغو يخطط لطرده الأفغان من بيشاوور وما حولها ، ولم يكن ضياء الحق منتبهاً للمكيدة التي يدبرها رئيس وزرائه ، ولكن المجاهدين الأفغان والذين يؤيدونهم من كبار علماء باكستان أقنعوا ضياء الحق أن طرد المجاهدين يعني هدم القلاع والحصون التي تحول بين الشيوعيين وباكستان ، فغيّر موقفه ووعدهم خيراً ، ثم قام بعزل الدبلوماسيين الذين اشتركوا في محادثات جنيف

بعد إقالة وزارة جونيغو ، أما صاحب زاده يعقوب خان فلعله كان مغلوباً على أمره أو لعله اعتذر لضياء الحق وعلى كل حال فهو صديق من أصدقائه القدامى ، ولهذا أبقاه في وزارة الخارجية .
٢ - والمحطة الثانية في الصراع على السلطة: الجيش ، ضياء الحق هو القائد العام للقوات المسلحة ، وجونيغو كان رئيساً للوزراء ووزيراً للدفاع ، وفي كل مرة يطلب المدنيون التحقيق في قضية عسكرية كان ضياء الحق يقف إلى جانب الجيش ، وكانت صلاحيات الوزير تتعارض مع صلاحيات القائد الأعلى للجيش .

فالجيش كان واسطة بين الولايات المتحدة الأمريكية والمجاهدين الأفغان ، وعندما وصلت صواريخ "ستينغر" إلى إيران طلبت الولايات المتحدة من حكومة جونيغو التحقيق في القضية ، وأصاب الاتهام كانت تشير إلى نفر من كبار الضباط وكان أحدهم رافضياً ، فرفض القائد العام ومساعدوه الاتهامات الموجهة للجيش وأحيلت القضية للحفظ . وأثيرت القضية مرة ثانية عندما انفجرت الصواريخ في "روالبندي" و"فيصل آباد" ووقعت كارثة مات بسببها مئات الأبرياء وأحيلت القضية للحفظ .

والقصة التي قصمت ظهر البعير - كما يقولون - جرت في روالبندي في الشهر الخامس أي قبل إقالة الوزارة بأيام ، حيث اعتدى نفر من العسكريين على فتاة فزجرهم المدنيون ، ووقع شجار بين الطرفين ، وحاول "بشير الحسن" - عضو المجلس الوطني عن روالبندي - حل المشكلة غير أن العسكريين اعتدوا عليه في بيته ، وثار تائراً أعضاء المجلس الوطني ، واستغل جونيغو القضية وكانت ستطرح في أول اجتماع للمجلس الوطني ، وكانوا مقتنعين بأن رئيس الجمهورية لا يجوز أن يكون قائداً للجيش ، وهذا لو تم سيكون انقلاباً مدنياً ضد العسكريين ، وأصبح من المستحيل تعايش المدنيين مع العسكريين ، وتجاوز جونيغو الحدود المرسومة له ، ولهذا سارع ضياء الحق إلى الإعلان عن انقلابه الجديد .

أما الحديث عن الفساد ، فالأنظمة الديمقراطية كلها فاسدة ، وجونيغو ليس معروفاً عنه الرشوة والفساد ، أما عن تحكيم الشريعة ، فالرجل علماني وضد تحكيم الشريعة وضياء الحق هو الذي اختاره ، ويعرف حقيقته ولو بقي ضمن الحدود المرسومة له ل بقي من أعز أصدقاء ضياء الحق .
٣ - لا نشك أن ضياء الحق حريص على بقائه رئيساً لباكستان ، فمنذ أن قام بانقلابه الأول عام ١٩٧٧م وهو صل بطريقة ديمقراطية ذكية من أجل القضاء على كل من يعارض حكمه ، وتفنن في شق كل حزب من الأحزاب ، وفي ضرب الأحزاب ببعضها ، ونجح خلال فترة حكمه في إضعاف هذه الأحزاب ، ومن تركيبة الوزارة الجديدة نعلم ماذا يريد ، لقد استقطب عناصر بارزة من حزب الشعب ، ومن الرابطة الإسلامية وعناصر مستقلة مؤثرة ، وقد استنفر أجهزة الأمن والاستخبارات لتشاركه في الإعداد للانتخابات القادمة ، ومدة رئاسته تنتهي في عام ١٩٩٠م ، وقد صرح بأنه سيعلم عن استفتاء عام وصيغة هذا الاستفتاء الآتي: "هل يرغب الشعب في نظام إسلامي وحكومة رئاسية مع بقاء ضياء الحق في الحكم لمدة خمس سنين بعد انقضاء مدة رئاسته في عام ١٩٩٠!" ، وهكذا فبقاؤه وتطبيق النظام الإسلامي شيء واحد (انظر "أوبزرفر" ١٩٨٨/٧/٣) .

الموقف النهائي:

بعد هذا التحليل الشامل للأوضاع في باكستان نستطيع تحديد الموقف النهائي في النقاط التالية:
١ - عندما قاد ضياء الحق انقلابه الأول كان شخصية مجهولة ومع ذلك أيده الإسلاميون ، وفي عام ١٩٨٨م لم يعد مجهولاً ، وعلى الرغم من سلبياته الكثيرة فلا بد أن نعتزف بأنه الرئيس الوحيد في

باكستان الذي لم يبطش بالإسلاميين ، ومع أن جواً من الحرية يشمل العمل السياسي بشتى نواحيه منذ قيام باكستان ، لكن مع هذا فإن الإسلاميين يتمتعون بحرية خلال حكمه لا تتمتع بها أية جماعة إسلامية في العالم الإسلامي ، وموقف ضياء الحق من المجاهدين الأفغان لا بأس به ، على الرغم من وجود سلبيات لا يُستهان بها ، والبديل لضياء الحق لن يكون إسلامياً ولن يكون في مصلحة المسلمين.

٢ - جماعة العلماء والجماعة الإسلامية تبالغان في تقديرهم لأهمية الديمقراطية والانتخابات البرلمانية على الطريقة الغربية ، وقد تحالفوا في السابق مع أحزاب وهيئات علمانية ، وهم في معارضتهم لضياء الحق عندهم أسباب ومسوغات مهمة ولكن من هذه الأسباب أنه حل المجلس الوطني ، وأنه يخطط لإلغاء الأحزاب السياسية. ونحن نسأل ماذا يحدث لو ألغى الأحزاب والنظام البرلماني الديمقراطي ، والتزم تحكيم شرع الله؟!.

إن الأحزاب السياسية العلمانية الإلحادية يجب أن تلغى في ظل النظام الإسلامي ، والملحد لا حرية له - فرداً كان أو جماعة - فكم نتمنى أن يعيد إخواننا النظر بقناعاتهم في النظام الديمقراطي ، وكم أعجبنا اقتراح بعض الدعاة بضرورة وجود مجلس لأهل الحل والعقد في جميع مناطق باكستان ، وأن تتوفر في أعضاء هذا المجلس الشروط الشرعية الواجب توفرها في أهل الحل والعقد.

٣ - لا بد من نقد الأسلوب الذي يتبعه ضياء الحق ، والمخططات التي يرسمها ، فهو عندما يتجاهل جماعة العلماء والجماعة الإسلامية ، وأهل الحديث وبقية الجماعات والهيئات الإسلامية يرتكب خطأ فادحاً ، وهؤلاء أساس هذا البنيان الشامخ ، وعندما يجند المرتزقة الذين كانوا مع بوتو وجونيجو - يرتكب خطأ أشد فداحة من الأول ، فالذين خانوا بوتو سيخونون ضياء ، وكذلك الذين خانوا جونيجو. ليقلب ضياء الحق صفحات التاريخ قليلاً لأننا لا نريد أن نزيد إرهاباً فليس عنده وقت للقراءة ولذلك نقول ليقلب صفحات قليلة وليسأل نفسه أين الجموع التي كانت تهتف لجمال عبد الناصر من المحيط إلى الخليج؟! ، إن أعز أصدقائه - كالتهامي وغيره - هم الذين يتحدثون عن خيانتهم... وأين مسيرة المليون التي حملت سيارة النميري في الخرطوم ، هذا المليون خرج متظاهراً ضد النميري!.

إن المجموعات "الإنكشارية" التي يفاخر بها ضياء الحق من المدنيين والعسكريين ستكون أول من ينقلب عليه ؛ لأنها انقلبت على من سبقه وتمتحن الانقلابات وليس أمام ضياء الحق إن كان جاداً هذه المرة - إلا التعاون مع العلماء والدعاة الذين كانوا دائماً مع الإسلام ، وفي سبيل الله سجنوا وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وما زادهم ذلك إلا صبراً واستقامة وثباتاً.

إن أعداء الإسلام داخل باكستان وخارجها ينبلون عن قوس واحدة ، وقد جمعوا جموعهم ، وبدأوا يتظاهرون ويصدرون التصريحات ، وأسيادهم خارج باكستان يمدونهم بالمال والسلاح وأنواع الدعم كافة ، فماذا يفعل ضياء الحق عندما يفاجأ بأن الأحزاب والباطنيين والعلمانيين والمنظمات والنقابات ضده ،

في حين أن الإسلاميين لا يثقون به؟! ماذا يفعل عندما يفاجأ بأن أقرب الناس إليه من العسكريين هم الذين ورطوه وهم الذين يعملون في الخفاء مع غيره؟!.

ماذا يفعل إذا قُطعت عنه المساعدات التي تقدّم له من الدول الغربية التي يسميها صديقة؟! لقد وصل العجز في ميزانية باكستان إلى "٦٠ بليون روبية" ، وهو ما يعادل ١,٧ بليون جنيه إسترليني وارتفعت بعض السلع الأساسية بنسبة ٢٥% ، وبدأت الجهات الدائنة تطالب برفع

الضرائب وأجور الخدمات العامة ، وشعوبنا لا تصبر على الجوع ، فأين القاعدة العريضة التي تواجه هذه المشكلات الخطيرة؟!.

إننا في "البيان" نناشد الدعاة والعلماء والجماعات الإسلامية في باكستان أن يتنادوا لاجتماع عاجل يناقشون فيه مصداقية الدعوة الجديدة ، ويستنفروا طاقاتهم كافة من أجل تحكيم شريعة الله ، وأن لا يتحول هذا الشعار إلى تجارة ومزايدات ، ويأخذوا بعين الاعتبار الأخطار الداخلية والخارجية التي تهدد وحدة المسلمين في باكستان ، نناشدهم أن يضعوا مصلحة الإسلام والمسلمين فوق كل مصلحة ، نناشدهم أن يخلصوا نياتهم ، ويتجردوا لله غاية التجرد ، وينطلقوا من ثوابت لا يجوز لأحد من المجتمعين مخالفتها.

ونناشد العلماء والدعاة والجماعات في العالم الإسلامي أن يقفوا مع إخوانهم في باكستان ويمدوا إليهم يد العون والمساعدة قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم!

دلائل انهيار النظام الأفغاني

كنا نتجول في شوارع كابول بسيارة في أعقاب واحدة من بين كثير من سلاسل الانفجارات المدوية وتبادل إطلاق النار الذي يتخلل ساعات الظلام بشكل منتظم ولا يُعطى تفسير لوقوعه. أوقفت سيارتنا الدبلوماسية وطُوقت من قبل سبعة من رجال (سَرَندوي) - الشرطة البرلمانية الأفغانية المكلفة بالدفاع عن العاصمة - ، وتساءل السائق فيم إذا كان للمجاهدين دور فيما حصل ، فأجاب قائد وحدة (السرندوي) بالنفي وقال إن الحادث يتعلق بشؤون داخلية بحتة ، وبعد تأكد القائد ورجاله من عدم وجود أي أحد على مقربة منهم همسوا بصوت مرتفع بعض الشيء قائلين: "مجاهدين مجاهدين!" ، مزيلين أي شك حول ولائهم لمن يكون.

لقد أدهشنا رؤية انعدام الولاء وبهذا الشكل الصارخ من قبل رجال يُفترض كونهم في طليعة المدافعين عن كابول حال انسحاب آخر جندي سوفيتي بحلول منتصف شهر شباط من عام ١٩٨٩م.

يواجه نجيب الله تهديدات عدة ليس فقط من قبل المجاهدين ويواجه احتمال قيام انقلاب ضده من جهة القوة الجوية وكذلك احتمال اغتياله.

"تليمز" ٨٨/٥/٢٧م

من نتائج الغزو الروسي

قال الجنرال ألكسي ليزيخوف رئيس الجيش ورئيس التوجيه السياسي في البحرية يوم ١٩٨٨/٥/٢٥م إن (١٣٣١٠) جندي سوفيتي قد قُتلوا و(٣٥٤٧٨) قد جُرحوا و(٣١١) آخرين اعتُبروا في عداد المفقودين خلال ثمان سنوات ونصف من الحرب في أفغانستان .

ذكرت نشرة (سانتا راند) في تقرير لها نشر هذا الأسبوع (٢٠-٢٦/٥/١٩٨٨م) أنه من بين أهم العوامل التي ساهمت في اتخاذ قرار الانسحاب هو الانتشار الواسع للمخدرات والإفراط في تناول الكحول من قبل أفراد الجيش، وتدهور الأوضاع الصحية وكذلك الهروب من صفوف الجيش بالإضافة إلى ضراوة المعارك ، ويقول الجنرال ليزيخوف: لقد لعبت هذه العوامل وغيرها

دوراً كبيراً في إقناع المسؤولين العسكريين السوفييت بسحب قواتهم بعد جهود ثمان سنوات غير مجدية لهزيمة المجاهدين. ويقول ليزيخوف: إن انخفاض المعنويات والحوافز كانا سببين وراء انخفاض أداء الجيش السوفييتي ، ويضيف قائلاً: إن السوفييت أدركوا أنه ليس باستطاعتهم تحقيق نصر عسكري ، وإنها المرة الأولى التي يقر فيها السوفييت بالهزيمة!.

لقد لوحظ من خلال المقابلات التي أجريت أثناء إعداد هذا التقرير أن نسبة ٥٠% من الجنود السوفييت يتعاطون المخدرات بشكل منتظم بما في ذلك الحشيش والهيروين وأوبيام والمارجوانا. وقد نقل عن أحد الجنود السوفييت قوله: "إنهم كانوا يشربون (مانع التجميد) المستعمل في سيارات الشحن والغراء وزيت الفرامل. وكانوا يأخذون صبغ الأحذية ويضعونه على قطعة من الخبز ويتركون القطعة في أشعة الشمس حتى ينفصم الكحول عن صبغ الأحذية!".

ومن الراجح أن يحدث الانتشار الواسع للمخدرات ، والإفراط في شرب الكحول بين صفوف القوات السوفييتية أثراً سلبياً في المجتمع السوفييتي لفترات طويلة تعقب عودة تلك القوات إلى الاتحاد السوفييتي كما جاء في ذلك التقرير الذي أعد من خلال مقابلات أجريت مع قادة المجاهدين و(٣٥) مكلفاً سوفييتياً سابقاً ممن اشتركوا في القتال في أفغانستان ، بما في ذلك أسرى وهاربين.

لقد أدى غياب المياه إلى أوضاع صحية موحشة وإلى انتشار الكثير من الأوبئة كالتهاب الكبد والملاريا والتيفوئيد وبشكل واسع جداً. لقد أدت تلك الأحوال إلى حالات فرار متكررة وعصيان علني بل ومنظم، وقد وقعت بعض حالات انتحار كنتيجة لتدهور المعنويات. بلغت خسائر أمريكا في فيتنام (٥٨١٣٥) قتيلاً ، و(١٥٣٣٠٣) جريحاً ، و(٢٤١٣) مفقوداً.

"تايمز" ١٩٨٨/٥/٢٦ م

اندفاع جديد للمجاهدين الأفغان

منذ بداية انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان في ١٥ من أيار الماضي سقط في أيدي المجاهدين الافغان أكثر من (١٠٠) حامية سوفييتية وأفغانية و(٢٤) مدينة إقليمية ، ذكر ذلك دبلوماسيون في إسلام آباد. وذكر الدبلوماسيون في ١٩٨٨/٦/٢١ م أن مدينة نور غول الواقعة في إقليم كونار الشرقي كانت آخر مدينة تسقط في أيدي المجاهدين. وفي نهاية الأسبوع الماضي (١٣-١٩٨٨/٦/٢٠ م) ادعى المجاهدون السيطرة على مدينة (كالات) عاصمة إقليم زابوك الجنوبي ، وتمثل كالات أول عاصمة إقليمية تسقط في أيدي المجاهدين منذ بدء الانسحاب.

"تايمز" ١٩٨٨/٦/٢٢ م

أخبار حول العالم

قال ميخائيل غورباتشوف:

إن المشكلة التي تواجه القوتين العظميين هي التشدد الإسلامي ، وحذر بقوله: " يجب أن نعثر على وسيلة لضبط هذا الأمر ، لأنه إذا انفجر المسلمون في المنطقة كلها فإننا سنحتاج إلى عشرين سنة لتهدئة الأمر".

الثلاثاء ١٩٨٨/٧/٥

يوضح هذا التصريح وحدة النظر إلى الإسلام بين طرفين مختلفين ، فالعالم الغربي الصليبي الذي ترأسه أمريكا والعالم الشيوعي الذي ترأسه روسيا - على ما بينهما من خلافات فإنهما - يجدان شيئاً مشتركاً وهو عداوتهم للإسلام والمسلمين وسعيهم للتنسيق فيما بينهم في هذا المجال .
وكلمات: "التشدد" و"التطرف" و"التعصب" لها في لغاتهم ووعدهم أضعاف الأثر السيئ الذي لهذه المصطلحات في لغتنا العربية ، وتثير في أذهان شعوبهم من الخوف والهلع أكثر مما تثيره في أذهان المضللين من شعوبنا .

والشيء الذي ينبغي أن ينتبه إليه هو نظرتهم الظالمة التي تدل على غباء مختلط بإصرار على التعميم في كثير من الأحيان ، وذلك حين ينظرون إلى العالم الإسلامي من خلال إيران ، ولا يعرفون أن تصرفات إيران لا تعكس بالضرورة تصرفات ملايين المسلمين الذين إذا وافقتهم إيران بقول "لا إله إلا الله" ، فإنه يبقى وراء هذه الكلمة من عوامل الخلاف - أصولاً وفروعاً - الشيء الكثير الذي تخالفهم فيه .

فكل أعمال إيران التي يستهجنها الغرب والشرق ويتخذ منها أعداء الإسلام حجة لدمغ الإسلام وشرائعه وأخلاقه بأقذع الأوصاف وأكذب التهم هي وليدة ظروفها وحدها: ماضيها وحاضرها وأرضها وقوميتها وأحلامها .

ولكن متى كان أعداء الإسلام قديماً وحديثاً من صليبيين وشيوعيين وملاحدة ومنافقين يتسمون بالإنصاف في الخصومة والعدل في إطلاق الأحكام؟! .

لسنا ندري - والله - ما الذي يضير أعداء الإسلام من التشدد الإسلامي؟! .

هل اقتحم هؤلاء المتشددون - الذين يتداعون إلى حربهم - مدنهم ودولهم؟! .

أليست جريمة المسلمين - بنظر هؤلاء - أنهم يرفضون أن يعيشوا في بلادهم عبيداً ، أو أن يروا بلادهم نهباً مشاعاً أو موطناً لجنود هذه القوى المتجبرة ، ولذلك يصمونهم بهذه الأوصاف المنفرة ، ويحرض بعضهم بعضاً على حربهم والتشهير بهم؟! .

غورباتشوف: لم يتحقق شيء!

في مؤتمر الحزب الشيوعي الذي عقد أخيراً في موسكو ١٩٨٨/٦/٢٨م دعا الأمين العام للحزب ميخائيل غورباتشوف إلى إصلاحات جذرية في الشؤون السياسية والاقتصادية للاتحاد السوفييتي ، فقد انتقد شركات الدولة التي تسببت في شح المواد الاستهلاكية الضرورية ، بينما تكدس إنتاج المواد التي لا يحتاجها الناس ، وطالب بأن يكون الفلاح سيد أرضه وأن تتخلص الدولة من المزارع التعاونية. كما انتقد سياسة ستالين وبريجينيف التي حجرت على الفكر في الاتحاد السوفييتي ، ودعا إلى تقليص سلطات الحزب وأن ينتخب رئيس الدولة بالطريقة المباشرة كما في بعض دول الغرب ، وأن تنتخب الحكومات المحلية باقتراع سري دون تدخل اللجنة المركزية للحزب ، وذكر أن المجلس الأعلى للسوفييت إنما هو مجلس شكلي يؤمن على القرارات دون مناقشة ، ولا بد أن يعطى من السلطات ما يمكنه من دوره ومن الحد من نفوذ الحزب واعترف الأمين العام أخيراً بأنه بعد ستة عقود من حكم الحزب لم يتحقق شيء! .

تعليق:

هكذا يتراجع الفكر الماركسي بين كل فترة وأخرى ، وتظهر عيوب النظريات التي تحادّ الفطرة ، وتُبنى على الحقد والنظريات الخيالية ، وتصطدم مع حاجات الناس ومعاشهم. يتراجع هذا الفكر ليجد نفسه مضطراً لتقليد الغرب الذي كان يصفه بأبشع الأوصاف ، وليعترف بعد عشرات السنين أنه فاشل وأنه دكتاتوري مستبد ظالم ، فهل يعي هذا الدرس المتمركسون المقلدون للدولة (الأم) ويكفون عن الثرثرة حول الشيوعية والاشتراكية؟! وهل يعي هؤلاء المقلدون أنه بعد عشرات السنين أصبحت الصين أقرب إلى أمريكا منها إلى روسيا ، وأن الطوابير أمام الجمعيات الاستهلاكية أصبحت شيئاً لا يطاق في الدولة (الأم) وأنه بعد عشرات السنين لم تستطع الدولة والثورة إطفاء جذوة التدين عند مسلمي الجمهوريات السوفييتية الذين عانوا من طغيان الشيوعية ما لم يعانِهِ غيرهم ؛ لأن التدين مركز في فطرة الإنسان ، فلماذا لا يتوب هؤلاء ويعودون إلى الإسلام ، ويعلمون أنه لا حل إلا بهذا الدين!؟

الإيدز يهدد أمريكا ضحية كل خمس دقائق مع حلول عام ١٩٩٣م!

أبلغ مؤتمر دولي لوباء الإيدز يوم ١٣/٦/١٩٨٨م أنه يتم في أمريكا حالياً تشخيص حالة إصابة بمرض الإيدز كل عشر دقائق. وإذا ما صحت تنبؤات الخبراء فإن هذه المأساة الفردية ستسجل كل خمس دقائق في عام ١٩٩٣م. أما في أوروبا فإن الفارق الزمني بين تشخيص حالة وأخرى يزيد قليلاً على ما هو عليه في أمريكا، كما أن عدد الضحايا أقل، إلا أن كارثة مشابهة ستنزّل في لندن وباريس وروما ومدريد خلال سنتين ونيف ، كما أعلن في المؤتمر أن عدد حالات الإصابة الحديثة بالمرض التي يتم تشخيصها في كل أسبوع قد بلغ (١٥) في بريطانيا و(٢٥) في أسبانيا و(٢٦) في إيطاليا و(٣٣) في فرنسا ، وقد بلغ عدد حالات الإصابة في أمريكا وحدها ٦٥ ألف بمن فيهم (١٥) ألف توفوا في العام الماضي و(٢٨) ألف معان شخضت حالات في عام ١٩٨٧م ، وهو ما يساوي معدل إصابة واحدة كل أربع عشرة دقيقة!.

ويقول الدكتور جيمس كوران العامل في مراكز السيطرة على الوباء في مدينة أتلانتا في ولاية جورجيا أن ما بين مليون إلى مليون ونصف آخرين قد أصيبوا بهذا الوباء ، وحسب تخمينات الدكتور كوران المستقبلية فإن(٤١) ألف حالة جديدة ستظهر هذا العام في حين سيبلغ عدد الذين سيعانون المرض في أمريكا لوحدها مع حلول عام ١٩٩٢ (٣٦٥) ألف ، هذا وقد توفي إلى الآن نصف المجموع الكلي لمرضى الإيدز في أمريكا ، وقد بلغت دقة هذه التقارير في الأعوام الماضية نسبة ٩٨%.

هذا ، ويعتبر تناول المخدرات عن طريق زرق الإبر والشذوذ الجنسي على رأس قائمة أسباب تفشي هذا الوباء ، كما أن ظاهرة الاتصال الجنسي بين الرجال والنساء والتي لا يضبطها ضابط تعد سبباً رئيسياً وراء ولادة الأطفال المصابين بالإيدز ، أما في أوروبا فقد سجلت حالات

الإصابة بالمرض ارتفاعاً بنسبة ١١٥% منذ شهر آذار من العام المنصرم ، كما أن عدد المرضى أخذ بالتضاعف كل (١١) شهراً.

بأقلام القراء لقطات من العشر الأواخر

محمد حماد

يسر الله لي الذهاب إلى مكة المكرمة في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك لهذا العام ، وسجلت ذاكرتي هذه اللقطات:

الجهد المبارك :

رغم كبر سنه ، وضعف بنيته إلا أن الله قد منح هذا الشيخ الفاضل طاقة وهدياً قلماً تجده عند أكثر الشباب ، وهذا ليس ثناءً بل هو ما رأيته على مدى عشرة أيام كان خلالها الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين كتلة نشاط مستمرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله؛ فله درس بين صلاتي التراويح والتهجد ، ودرس بعد صلاة الفجر إلى ما بعد الشروق ، وفي العصر يستقبل الأسئلة والفتاوى. ولقد رأيته ما يكاد ينتهي من التسليم في صلاة التهجد بعد كل ركعتين حتى يأتيه المستفتون ولا ينقذه منهم إلا الصلاة!

وحبذا لو أن الشيخ - حفظه الله - بالإضافة إلى جهده العلمي المشكور - كان النصيب الذي يعيره للشباب ومشاكله أكثر ، فهم بحاجة إلى توجيهه ورعايته ، ودمتم لنا يا شيخ محمد.

الكيف قبل الكم:

لا شك أن القلب يمتلىء بهجة وهو يرى أفواج المصلين الذين يترددون على المسجد في كل صلاة ، ولكن إذا تمعنا قليلاً رأينا أموراً تقول لنا ألا نتسرع في الحكم ، فالطريق لا زالت طويلة وأن التربية الإيمانية لم تكتمل بعد. مشهدان ندلل بهما على ما نقول:

المشهد الأول: قبل أذان المغرب: أحد العمال يوزع الأكواب الورقية، تتجمع عليه جماعة من الناس ، ينزعون الأكواب منه بالقوة ، كلهم يريد أن يأخذ أكثر من حاجته ، أحد المزاحمين - وكان قد فاز بكيس كامل من الأكواب يسأله أحدهم أن يعطيه بعضها فيرفض قائلاً: "يا عمي إحنا ما أخذناها إلا بالقوة!!".

المشهد الثاني: تعطلت السلالم الكهربائية بسبب زيادة الحمل ، والمصلون يتزاحمون ورفضوا الانصياع لتوسلات المسؤولين بالتريث والانتظام ، وعندما ارتجت الدرجات بهم فزع المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وتدافعوا وتصايحوا ، فهذا يقفز لينجو بنفسه ، وهذا يصرخ. والناس قد أصابهم الذهول. ترى كيف يفعل هؤلاء عند مواجهة العدو؟!.

قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأبو داود عندما سئل عن سبب تداعي الأمم على المسلمين: هل هو من قلة؟ ، قال: لا ، ولكنكم كغناء السيل، يجعل الوهن في قلوبكم وينزع الرعب من قلوب عدوكم بحبكم الدنيا وكرهيتكم الموت. صحيح الجامع/٨٠٣٥.

من شوارع مانهاتن إلى المسجد الحرام:

إنها نقلة ضخمة وعجيبة ، ولكن ليس ذلك على الله بعزيز ويبقى هؤلاء النفر من المسلمين الجدد مثلاً على قدرة الله ورحمته في هداية الناس ، فمن شوارع وأزقة مانهاتن وحاتانها ، حيث المخدرات والجريمة والضياع (أحدهم تعرّف على المخدرات وعمره ٩ سنوات) إلى الاعتكاف في بيت الله الحرام ، الله أكبر!

أمضيت بعض الوقت مع أحد الإخوة وهو يدرس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وكان معظم حديثنا عن حال المسلمين في أمريكا الشمالية فأعطاني معلومات كثيرة عن "البلالين" تختلف عن الفكرة التي كانت لديّ بناءً على ما قرأته من قبل عن حال هذه الجماعة الآن ؛ لذلك أتجه إلى مجلّتنا الحبيبة "البيان" لتعطينا تقريراً عن أوضاع هذه الجماعة وغيرها من الجماعات الإسلامية في أمريكا.

(البيان: نعد الأخ بذلك ونرجو أن نوفق إلى ذلك).

ليلة ٢٧ من رمضان:

يكاد المرء يلمس الروحانية لمساً في تلك الليلة المباركة ، لا مكان في الحرم إلا وفيه عابد لله من طائف بالبيت إلى قائم يصلي إلى قارئ للقرآن.

صحن الكعبة كخلية النحل ممتلئ إلى آخره. مرت لحظات من صلاة التهجد تكاد ترى فيها النور يمتد من المحرم إلى عنان السماء. إنها لحظات عجيبة تجمع فيها أكثر من مليون ونصف مسلم. ليس على سطح الأرض كل مظاهرة إيمانية كهذه في هذا الوقت.

وتسمع البكاء والنحيب والدعاء المتضرع ولاشك أن كثيراً من المسلمين كان مخلصاً في دعائه الله بالمغفرة ونصرة الإسلام والمسلمين.

ولكن الدعاء وحده لا يكفي ، إن الله كريم جواد قادر على أن ينصر دينه وعباده ولكن سبق قوله - تعالى: ((إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)) [الرعد: ١١] ، لا بد من التغيير ولا بد من العودة الصادقة إلى الله والإنابة إليه ، لا يكفي الدعاء أو عبادة ليلة واحدة أو شهر كامل ، إذا أردنا أن تقام دولة الإسلام في أرضنا فعلينا أن نقيمها في أنفسنا وبيوتنا وأعمالنا في كل لحظة ، بل في كل يوم ؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم- ما دعا في بدر عندما دخل العريش وأطال وألح في الدعاء إلا بعد أن أعد العدة وجهز الجيش وربى الصحابة.

فلسفة

خالد الخميس

غريبة هذه الحياة كل يوم ينقضي يقربك من القبر. الإنسان فيها يسعى للكمال ، يكافح ويكدح، له آمال وخطط مستقبلية يظن أنه سيخلد، بل لا يفكر في شيء اسمه الموت أبداً؛ لأنه موضوع يأتي له بالوهن والهيم ، بل وأيضاً لعدم وجود موقف ثابت منه ، لذلك يحاول الإنسان أن يستبعد هذا المفترس من قاموس حياته اليومية.

ولو أن للإنسان عقلاً رزيناً لفكر في مستقبله الأخير ونهايته الأبدية كيف ستكون. ولنفرض جدلاً أنه لا يوجد حياة برزخية وأخرى أخروية ، والموت نهاية الحياة على الإطلاق. هنا نتساءل ما معنى الحياة إذا سوى أن تكون لذة انقضت أو شقاء انتهى؟! وما دام أن هذه اللذة وهذا الشقاء انتته فمن العسير أن نسمي هذه لذة وهذا شقاءً ، بل كلها تسمى بالفناء. ومن هذا المنظور لا يصبح للحياة معنى

عند عقلاء الملحدين ، أما إذا أدرك المرء أن هناك حياة أخروية فهنا يتغير المنظور وتتضح عبارة اللذة وعبارة الشقاء ؛ فاللذة ما كانت نعيماً أخروبياً، والشقاء ما كان عذاباً أخروبياً أيضاً. ((أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧))) [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

خيبة لأنصار التماثيل!

منصور الأحمد

سوف يكتب مستقبلاً في صفحات التاريخ أنه كان هناك في النصف الثاني من القرن العشرين زعماء يمتطون صهوات الجياد، وقد ناءت أكتافهم وصدورهم بالأوسمة والنياشين مع أنهم لم يخوضوا معركة ولم ينتصروا في ميدان! وإنه من أجل أن تبقى هذه الصورة المجافية للواقع مطبوعة في عقول الشعوب ، فقد استخدموا كل مقدراتها من أجل ذلك ، ومن ذلك تماثيل باذخة تذكرنا (برعمسيس الثاني) و (تحتمس الثالث) و(الإسكندر الأكبر) و(يوليوس قيصر) و (جنكيز خان) وغيرهم وغيرهم من هذا الرعيل الملعون.

حرص هؤلاء المأفونون على تخليد ذكرهم على أكتاف شعوبهم ، واتخذوا من أفراد محكومهم مراقبي بنوا عليها أمجادهم الكاذبة ، فكم من هواة (الفن) من يسأل نفسه حين يقف مبهوراً مشدوهاً أمام نصب من هذه الأنصاب: كم كلف هذا الأثر الفني من قوت الشعب، وكم جاعت من أجله بطون ، وعريت في سبيله أجسام ، ولاذت في دائرة النسيان ملايين ، وانتُهكت من أجل تحصيل الضروري كرامات وحرمان؟!.

لكن الله يأبى أن يمتد حبل الكذب إلى غير نهاية ، وأمامنا شواهد كثيرة على هذا، حيث نرى أن تماثيل نصبها أصحابها في كل ميدان مهم أو ساحة في مدينة لتقع عليها العيون أينما اتجهت وحيثما نظرت ، وأرادوا من ورائها غرس المبادئ الغربية في تربة بلادهم على الرغم من مشاعر الأمة التي يحكمون وعقائدها، وابتغوا من وراء هذه الأصنام المنصوبة خلود الذكر في هذه الدنيا ، ولكن ماذا نرى؟!.

نرى أن هذه الشعوب التي تحدوها أهوت على تماثيلهم هذه بالفؤوس والمعاول وداست شظاياها بأقدامها وأمام مرأى من أصحابها في بعض الأحيان (١).

إن دول أوربا التي يقلدها أنصار إقامة الأصنام والتماثيل - ينبع حبها لذلك من جذور ثقافتها وديانتها التي أخضعت لتأثير الوثنية اليونانية والرومانية من يوم أن دانت بها هذه الشعوب ، وتكرم شعوبها عظماءها بعد أن يرحلوا مخلفين ورائهم شيئاً يستحقون عليه التكريم.

أما نحن ، فلا ثقافتنا وديننا يبيح لنا ذلك ، ولا شعوبنا هي التي تنبري عن طواعية بعد وفاة "العظيم" لتكريمه بهذا الأسلوب ، بل "العظيم" نفسه هو الذي يكرم نفسه ، ويمنحها الشهادات غافلاً أو متغافلاً عن شهادات التاريخ ، والمفارقة الطريفة أن التاريخ - على الرغم من تدخل أصحاب الرغائب في صياغته - يفرض منطقته على مرأى من هؤلاء "العظماء" الأذعياء.

ألا ما أسخف عقول الذين يبررون إباحة التماثيل بأن الإسلام حرمها حين كان هناك خوف من عبادة الناس لها ، وأما وقد انتفى هذا المحذور ببلوغ البشرية سن الرشد فلا بأس بها!

وما أعظم الإسلام حينما جعلها رجساً من عمل الشيطان ، وجعل من ينفق على إقامتها ليس غير جدير بأن يحكم غيره فحسب ، بل حريّ أن يُحجر عليه لسفهه فلا يقوم حتى على أمر نفسه!

الهوامش:

١ - كما حصل للشاه بالأمس ، ولأبي رقيقة هذه الأيام.

تمت بحمد الله
